الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أكلي محند أولحاج
-البويرة-
كلية الآداب واللغات

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique
Université Akli Mohand Oulhadj - Bouira -
Tasdawit Akli Muḥend Ulḥağ - Tubirett -
Faculté des Lettres et des Langues

جامعة البويرة

قسم اللغة و الأدب العربي.
تخصص أدب حديث و معاصر

تيمة الوطن بين مفدي زكريا وإبراهيم طوقان
(نصوص مختارة)

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على شهادة الماستر

من إعداد الطالبين:
- عبد اللطيف لعرباوي
- حمزة بلقاسم

من إشراف الأستاذ:
- جمال قالم

لجنة المناقشة:

اسم ولقب الاستاذ	الجامعة	الصفة
أ/ كمال علوات	جامعة البويرة	رئيسا
أ/ جمال قالم	جامعة البويرة	مشرفا ومقررا
أ/ لعريبي عواج	جامعة البويرة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2023-2024

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أكلي محند أولحاج
-البويرة-
كلية الآداب واللغات

Ministère de l'Enseignement Supérieur
et de la Recherche Scientifique
Université Akli Mohand Oulhadj - Bouira -
Tasdawit Akli Muḥend Ulḥağ - Tubirett -
Faculté des Lettres et des Langues

جامعة البويرة

قسم اللغة و الأدب العربي.
تخصص أدب حديث و معاصر

تيمة الوطن بين مفدي زكريا وإبراهيم طوقان

(نصوص مختارة)

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات الحصول على شهادة الماستر

من إعداد الطالبين:
- **عبد اللطيف لعرباوي**
- **حمزة بلقاسم**

من إشراف الأستاذ:
- **جمال قالم**

السنة الجامعية: 2023-2024

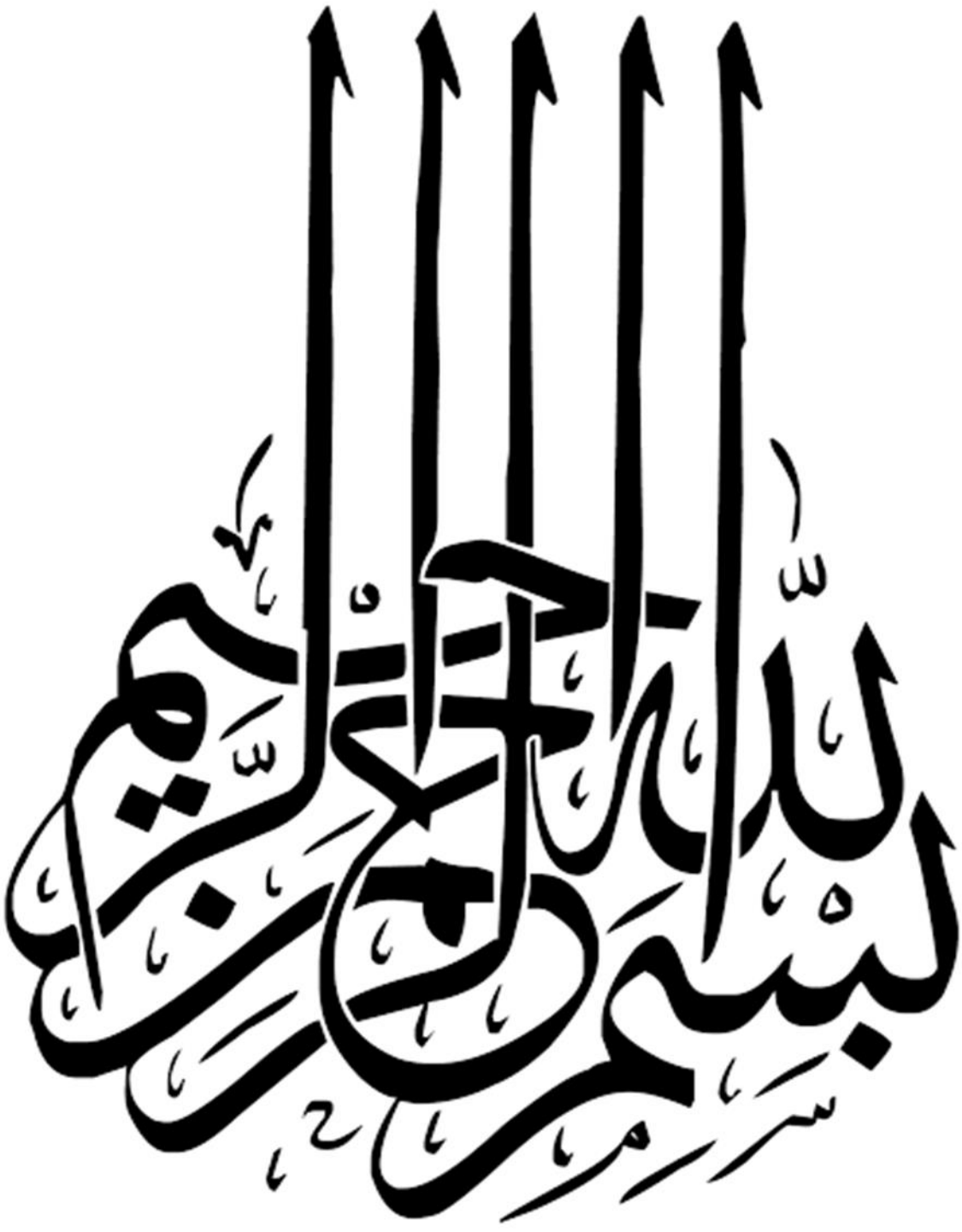
بسم الله الرحمن الرحيم

إهـداء

إلى من كانت سندًا لي في الحياة، ففارقتني وسافرت إلى رب الأرض والسماوات.

فكان دعاؤها لي من أسباب النجاحات.... رحمك الله يا والدتي.

إلى الوالد العزيز، صاحب الفضل بعد الله في التوفيق والثبات.

إلى كل الأهل والأقارب والأحباب.

وأخص بالذكر كل صغير وكبير من عائلتي المباركة.

إلى رفيق الدرب، وعنوان الوفاء والقرب، "أبو ماهر عبد اللطيف لعرباوي"

.....عائلتي الكريمة، زوجتي.

أولادي الصغار "عماد تقي الدين، عبد الله، والكتكوتة رانيا"

حمــزة بلقــاسـم

إهـداء

إلى أعز الناس، وأقربهم إلى قلبي...."والدي العزيزين".

إلى من ساندتني وخطت معي خطواتي

ويسرت لي الصعاب، زوجتي العزيزة وشريكة الحياة.

إلى زهرتي، وفلذتي كبدي "ماهر وهناء".

إلى صديقي ورفيقي في هذا البحث "حمزة بلقاسم" كل الشكر والتقدير...

إلى أساتذتي وأهل الفضل علي، وأخص بالذكر الدكتور "جمال قالم" صاحب الابتسامة والخلق الحميد....

إلى أصدقائي وإخوتي وأخواتي...

إلى كل هؤلاء، أهديهم هذا العمل المتواضع، سائلًا المولى العلي القدير أن ينفعنا به، ويمدنا بتوفيقه

عبد اللطيف لعرباوي

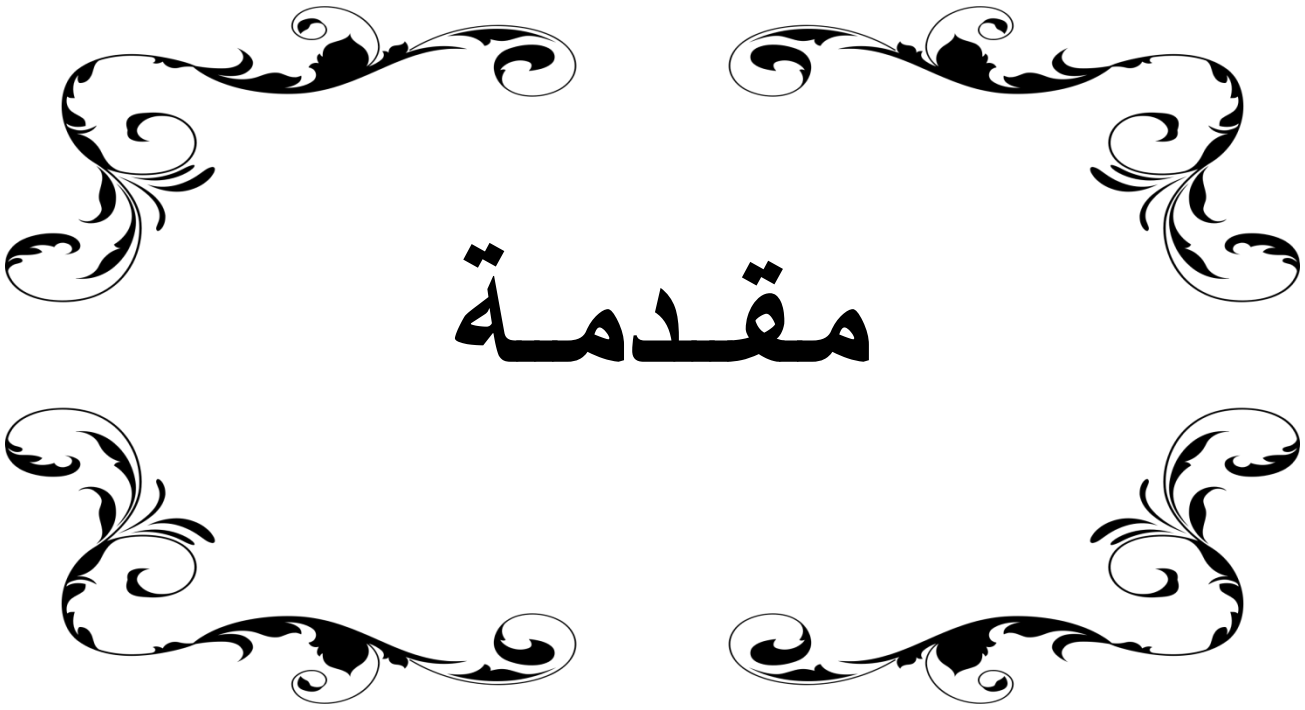

مقدمة

الوطن، تلك الكلمة التي تسكن في وجدان الأفراد، وتتجلى في خواطر الشعوب والمجتمعات، يتحدث عنها الجميع وينتسب إليها الكل، ويسعى للحفاظ عليها كل إنسان أودع الله فيه روحا، إلا أن لهذه الكلمة تمظهرا مختلفا عند الشعراء والأدباء، لا سيما أولئك الذين حرموا هذه اللذة الفطرية، التي من عانى فقدها كانت مظاهر الحرمان بادية عليه.

يعبر الشعراء عن حبهم لأوطانهم ويسعون للمحافظة عليه، وفي جعبتهم آليات مختلفة وطرائق متباينة في الذود عنه، ومن هنا كان موضوع بحثنا يصب في هذا المجال، ويحيل إلى تيمة الوطن من الناحية الموضوعاتية، فاخترنا له عنوانا: "تيمة الوطن بين مفدي زكريّا وإبراهيم طوقان"، ولم يكن اختيارنا لهذا العنوان بمحض الصدفة، بل جاء تلبية لحاجة هي نفسها التي من أجلها نظم الناظمون في حب الوطن، خاصة وأننا نمر بمنعرجات خطيرة جدا في بلادنا العربية، هي نفسها المنعرجات أو التحديات التي مر بها هؤلاء الشعراء.

كما تم اختيارنا لهذا الموضوع تلبية لحاجة علمية، منها: قلّة الدراسات التي تناولت موضوع الوطن عند الشاعرين، والمقارنة بينهما.

وما دفعنا للخوض في غمار هذه الدراسة أيضا الفضول الذي يبعث على التساؤل عن دور الشعراء في غرس قيم الوطنية والهوية، وفي المقابل كانت همتنا تسعى للوصول إلى جوهر هذه الأعمال الشعرية، والوقوف على خصائصها التي جعلت من تلك القصائد سببا في بعث حب الأوطان و التغني بجماله و التضحية من أجله.

وقع اختيارنا على هذين الشاعرين دون غيرهما لأن كلا الشاعرين برزا في هذا الميدان، فجاءت قصائدهما تصب في قالب الوطنية، وتعالج هموم الشعوب، لكن لكل شاعر طريقته في تناول مفهوم الوطنية، وسماته في توظيف تيماتها، فكان لابد من توضيح ما أشكل على الباحث المتخصص في هذا المجال وإشباع رغبته الأدبية فيه.

دفعنا لخوض غمار هذا البحث إشكاليات كثيرة تتعلق بموضوع بحثنا هذا من بينها:

– كيف تمظهرت تيمة الوطن بين مفدي زكريا وإبراهيم طوقان؟

– ما هي أهم نقاط التوافق والاختلاف بين الشاعرين في تصوير الوطن؟

– ما المقصود بتيمة الوطن؟

– وهل كان لتيمة الوطن حضور عند شعراء العرب عبر العصور؟

إجابة عن هذه التساؤلات قسمنا بحثنا هذا إلى فصلين، تناولنا في الأول منهما التعريفات الخاصة بمصطلح (التيمة) ومصطلح (الوطن)، تم التطرق في ذلك لأهم ما جاء في معنى هذين المصطلحين، مركزين في عملنا على أمهات الكتب في هذا المجال، من معاجم عامة ومتخصصة، كما أوردنا في هذا الفصل تجليات تيمة الوطن في الشعر العربي عبر العصور، حيث أوردنا نماذج شعرية لأبرز شعراء كل مرحلة، وتطرقنا لمفهوم الوطن وكيف نظر إليه الشعراء، من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث.

أما الفصل الثاني، فكان فسحة لاستخراج تلك التيمات وتصنيفها ثم المقارنة بينها، وقد وقع اختيارنا على أربعة عناصر مهمة تتعلق بتيمة الوطن ألا وهي: **حب الوطن، جمال الوطن، ونقد الواقع الاجتماعي والسياسي، التضحية من أجل الوطن**، مختارة من نماذج شعرية من دواوين الشاعــرين .

وتم العمل على هذه العناصر وفق منهج المقارنة لاستخراج أوجه التشابه والاختلاف في هذه العناصر عند الشاعرين، ومن ثم الوصول إلى أهم الخصائص الشعرية لديهما، والنظر في مدى تحققها وحضورها في هذه النصوص الشعرية.

يسبق الفصل الأول مدخل تناولنا فيه لمحة مختصرة عن المنهج الموضوعاتي والذي تم تحليل النماذج الشعرية بناء عليه، واختتمنا بحثنا هذا بخاتمة لأهم ما تم التوصل إليه حول هذا الموضوع، ورصدنا فيها أهم ما تم تحقيقه من تجليات الموضوع.

ثم أوردنا ملحقا عرفنا فيه بالشاعرين تعريفا مختصرا، وذكرنا فيه أهم ما يتعلق بهما من حيث الإنتاج الشعري، وقائمة المصادر التي اعتمدناها في هذا الموضوع من أهم أمهات المعاجم اللغوية كلسان العرب، الجمهرة، والمعاجم اللغوية المختلفة، كما اعتمدنا "الإلياذة، واللهب المقدس، وتحت ظلال الزيتون" كمصادر لاستخراج تيمة الوطن عند مفدي زكريا وكتاب "الأعمال الشعرية الكاملة لإبراهيم طوقان" كمصدر لقصائده الشعرية التي تناسب موضوع بحثنا، بالإضافة إلى مجموعة من المراجع منها: كتب "عبد المالك مرتاض" رحمه الله، ومؤلفات "عمر فروخ" صديق الشاعر " إبراهيم طوقان".

واجهتنا في سبيل تحقيق هذا العمل تحديات وصعوبات، أهمها السباق مع الزمن، خاصة وأننا مرتبطان بتوقيت عمل مزدحم، وظروف عائلية تجعل من التنقل لجلب المصادر والمراجع أمرا صعبا لكن بفضل الله عز وجل، ثم بفضل أستاذنا القدير "قالم جمال"، الذي ذلل لنا الصعوبات وكان نعم الموجه والمشرف على هذه المذكرة.

نتمنى أن يكون بحثنا هذا انطلاقا لدراسات علمية على نفس المنوال... كما نتمنى أن يكون نافعا مفيدا لنا ولغيرنا من القراء.

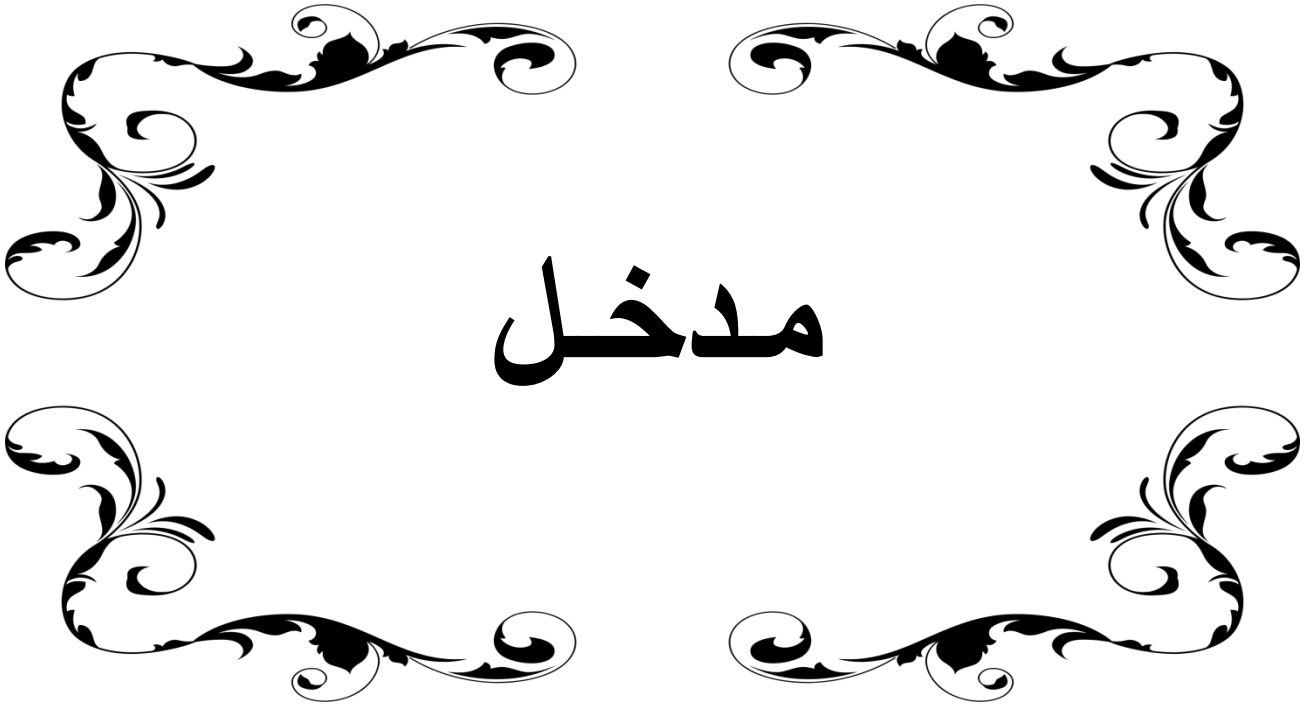

مدخل

تطرقنا في مقدمة بحثنا إلى مصطلح مهم يتعلق بالمنهج المعتمد في دراسة النصوص الشعرية لدى الشاعرين، وتم خلالها التصريح باعتماد المنهج الموضوعاتي في النقد والتحليل، وهذا لعدة أسباب من بينها:

– التشابه، أو التطابق بين مصطلح الموضوعاتية ومصطلح التيمة في المفهوم، ووجود تداخل كبير في تعريف المصطلحين عند النقاد والمختصين.

– اعتماد المنهج الموضوعاتي في الجانب التطبيقي يضم خطوات وآليات تتناسب مع موضوع التيمة، والذي عنونا به بحثنا.

وقبل الخوض في آليات هذا المنهج وطريقة تعامله مع الأعمال الأدبية لا بد من التعريف بهذا المصطلح.

1– تعريف المنهج الموضوعاتي :

يرتبط المنهج الموضوعاتي بالموضوع، يقول عبد الكريم حسن: "الموضوع هو المبدأ الذي تلتقي عنده كافة المفاهيم التي تؤسس للمنهج الموضوعي، ولعله من قبل التزيد أن نشير إلى أن الموضوعية هنا ليست إلا نسبة للموضوع (THEME)، مما يضع الموضوع في المقام الأول بين بقية المفاهيم"[1]، فالموضوع إذا أساس الدراسة الموضوعاتية.

والمنهج الموضوعاتي هو" أحد المناهج النقدية المعاصرة، التي تعمل على تتبع التيمات الكبرى والصغرى في العمل الأدبي، وتعود جذوره إلى الفلسفة الظاهراتية:[2]

– الموضوع مبدأ يعني نقطة انطلاق ونقطة عودة.

1. عبد الكريم حسن، المنهج الموضوعاتي نظرية وتطبيق (la thémathique)، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، بيروت، 1990، ص 37.
2. نفسه، ص .38

- الموضوع مبدأ محسوس (concret)، يعني أنه يستند إل قاعدة حسية.

- الموضوع ديناميكية داخلية.

- الموضوع ثابت (objet fixe) يسمح للعالم بالتشكل والامتداد.

وتضيف الدكتورة منيرة شرقي:[1]

- يتبع النقد الموضوعاتي المدلولات التي يحملها النص.

- يشتغل بالبحث عن الأفكار المسلطة على الكاتب.

- أسبقية الجزء على الكل.

- الأساس الأول في المنهج الموضوعاتي هو دراسة المدلول.

- يعنى بدراسة الموضوع (التيمة) الماثل في النص الأدبي.

- يرتبط بمفهوم المراكبات الموضوعاتية (دراسة موضوع في علاقته بالمواضيع الأخرى).

- الموضوع هو الفكرة الجوهرية للعمل الأدبي إضافة إلى خاصية التكرار.

2- آليات المنهج الموضوعاتي:

و قد لخصت كريمة زيتوني أهم آليات اشتغال المنهج الموضوعاتي في ما يلي[2]:

- الموضوع.

- المعنى: يعني النقد قراءة مسيرات شخصية غايتها إبراز المعنى والكشف عن التدرج فيه.

- الحسية: فالعملية الإبداعية تختصر في شعور الشاعر بأحاسيسه.

1. منيرة شرقي، النقد الموضوعاتي، مجلة الآداب ع 1، الجزائر، 2019، ص 77.

2 ينظر: كريمة زيتوني، المنهج الموضوعاتي في مقاربة الشعر العربي (بحث لنيل شهادة الماجستير)، إشراف: د. محمد قادة، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، www.e-biblio –univ-mosta.dz، ص 59-65.

-الخيال.

– العلاقة: فظهورات المعنى تصدى في اتجاه بعضها.

– التجانس: تتشكل الموضوعات من أفكار فرعية تلتقي فيما بينها لتشكل الموضوع الأساس

– الدال والمدلول: فعلاقة الدال بالمدلول يطرحها البعض على مستوى الصورة والمعنى والبعض الآخر على مستوى الحرف والفكر.

– شكل المضمون.

– البنية: تجعل المقاربة تتساءل عن البنى الخاصة التي تمثل الحضور الشعري.

– العمق: وهو أن المعاني الحقيقية لا تقال في المعاني الظاهرة.

– المشروع والقصدية والوعي.

وفي حقيقة الأمر فإن شرحنا لهذه العناصر ومدى حضورها في عملية التحليل النقدي للأعمال الأدبية يقتضي منا تخصيص فصل كامل، وهذا ما يجعل من بحثنا هذا متسعا، لذلك قررنا أن نوجز في مدخلنا هذا أهم ما جاء عن هذا المنهج، فاسحين المجال أمام القارئ ليعود إلى أهم المصادر والمراجع التي تعنى بهذا الموضوع والتي اثبتناها في هذا المدخل.

الفصل الأول

1-في المفهوم والمصطلح:

1-1 مفهوم التيمة:

1-1-1 لغة:

من خلال تصفحنا للمعاجم، ومحاولة منا للبحث عن المعنى اللغوي للفظة: التيمة اتضح لنا أنّ هناك تنوعا، وتباينا كبيرين في تعريفها.

فقد جاء في القاموس المحيط: «التيم: العبد، ومنه تيم الله ثعلبة بن عكاية، والتيمة بالكسر ويهمز الشاة تذبح في المجاعة، والشاة الزائدة على الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى، والتي يحتلبها في المنزل وليست بسائمة».[1]

وعلى نهج الفيروز أبادي في تحديد معنى الكلمة، وباختصار لكل الاشتقاقات الممكنة لها جاء في مختار الصحاح: ت ي م التيمة بالكسر: الشاة التي يحلبها الرجل في بيته، وليست بسائمة، وفي الحديث: «التيمة لأهلها»، أو التيماء الفلان، وتيماء اسم موضع.[2]

ولكن صاحب المصباح المنير ذهب في تعريفه اللّغوي لهذه الكلمة مذهبا، خالف فيه من ذكرنا سابقا، فقد أهمل كل الاشتقاقات السابقة لهذا المصطلح، واقتصر على معنى واحد، استلهمه من أصل كلمة ت.ي.م: وهو موضع من بادية الحجاز، يخرج منها إلى الشام على طريق البلقاء[3] ولو تمّعنا في هذا التعريف لوجدنا أن الفيومي وكعادته في شرح المعاني وتوضيح المفاهيم، ينحو منحى الاختصار، ويميل إلى الشائع من التعاريف، ولكنه عرف مصطلح التيمة بنفس الطريقة التي عرفها به الفيروز أبادي.

---

1. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: القاموس المحيط، تح: أنس محمد الشامي، زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، 2008، ص 204.
2. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1986، ص 48.
3 . ينظر: أحمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، دار الحديث، القاهرة، 2003، ص: 100.

ومثله تماما ما جاء في المعجم الوسيط:("تام" – تيما تخلى عن الناس و–الهوى والحبيب فلانا: استعبده وذهب بعقله (تيمه) الهوى، أو الحبيب (تامه)، أتام، أتام، (التيم): العبد، ومنه سمّت العرب تيم الله، وتيم اللّات، (التيماء): الفلاة الواسعة، ويقال أرض تيماء: قفرة مهلكة، ونجوم الجوزاء، (التيمة): الشاة تكون لصاحبها في منزله، وليست بسائمة وما يعلق على الصّبي.)[1]

وهاهنا وقفة لابد منها، وهو أن المعنى اللغوي لهذا المصطلح لا يمت بأي صلة لما يتم تداوله من تداول لهذا المصطلح في الاستعمال الشائع لدى النقاد في عصرنا الحديث فأصل الكلمة كما عرفته المعاجم السابقة يقتصر على مفاهيم محددة أهمها:

– الشاة تكون لصاحبها في منزله.

– موضع من بادية الحجاز.

– التيم هو العبد.

– التيم هو الحب وذهاب العقل، وهو ما وضحه الباحث أحمد مختار عمر في معجمه: «ت ي م تام، تِمْ، فهو تائم والمفعول: متيم وتامهُ الحب: استعبده وذهب بعقله.

– تَيَّتَم، تَتَيُّمُ، تيتيما، فهو مُتَيَّمٌ، والمفعول مُتَيَّم، تَيَّمَهُ الحب أو الهوى، استبدَّ بقلبه واستعبده، وذهب بعقله، «مجنون ليلى شاعر عربي مات متيّمًا».[2]

وعليه، فإنّ تناول المعاجم لمصطلح التيمة، وإن كان اصطلاحا قد توارثه العرب، وعبّروا به فإنّه لا يتجاوز حدود الاستعمال العادي البعيد عما يعنيه في اصطلاح المتخصصين.

فبعد ذكر المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة، سنرى أن هناك تباينا كبيرا في المعنى بين المستويين اللغوي والاصطلاحي.

---

1. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2005، ص 92.

2 . أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، مج 1، ط1، دار عالم للكتب، القاهرة، 2008، ص 307.

1-1-2 اصطلاحا:

تقول ليلى احمياني: "ينبع إشكال التيمة في توظيفه في مجالات معرفية ونقدية متعددة فقد تبناه الوجوديون والماركسيون والبنيويون، ورواد النقد الظاهراتي، والتحليل النفسي، ويأخذ مع كل منها معنى خاصا، ويشكل عندهم إجرائية تحليلية متميزة، كما يرتبط أشكال مفهوم التيمة خصيصا عند العرب بصعوبة وضع مقابل دقيق لمفهوم Thème، وذلك لاختلاف مرجعيات المترجمين وعليه نجد مقابلات متعددة أهمها: الموضوع، الموضوعاتي، المحور، التيمة...

- الموضوع: استعمله حميد الحمداني في سحر الموضوع.
- الموضوعاتي: سعيد علوش في مقابل Thème في كتابة النقد الموضوعاتي.
- الجذري: استعمله سامي سويدان ليقابل Thématique في ترجمته لكتاب تودوروف " نقد النقد"[1].

انطلاقا من هذا التعريف، وبناءً على ما ورد في محتواه من تعاريف متباينة في المعنى، وبما أن معظم التعريفات مستمدة من ترجمات مختلفة لمصادر عدة فإنّه من الضروري أن يكون التعريج على معنى هذه الكلمة من مصادرها الأولى.

وفي هذا الصدد يقول جميل حمداوي: «يشتق مصطلح الموضوعاتي Thématikimie في العقل المعجمي الفرنسي من كلمة Thème، وهي التيمة، وترد هذه الكلمة بعدة معاني مترادفة كالموضوع والغرض والمحور والفكرة الأساسية والعنوان والحافز والبؤرة والنواة الدلالية...الخ، ويقابل كلمة Thème عند اللّسانيين الوظيفيين الجدد مصطلح Rhème لأنّ موضوعات جديدة، أو اختيار يسند إلى المسند إليه، أو تضاف إلى الفكرة الرئيسية...»[2]

---

1 .ينظر: ليلى أحمياني، إشكالية مفهوم التيمة، www.ahemai.orgdebat نشر يوم 27 جويلية 2014، اطلع عليه يوم 27 جانفي 2024.

2 جميل حمداوي، نظريات النقد الأدبي فيما بعد الحداثة، www.alukah.com ص: 379/378

وفي سياق آخر، وفي سعي منه للتفريق بين علم الموضوع Thématolog، والموضوعاتية Thématique، أورد الدكتور يوسف وغليسي إشكالية: ما هو الموضوع أصلا؟ وكيف يمكن للبنيوية المرتبطة عقلا ونقلا بالبنى والدوال والإشكال ...، أن تتخذ إجراءً منهجيا في دراسة المدلولات والموضوعات والأفكار والمضامين؟

تشير جاكلين بيكوس في قاموسها التأثيلي إلى أن هذه الكلمة Thème كانت تعني في القرن 13م كل ما تعنيه كلمة sujet (مادة أو فكر أو محتوى أو قضية، أو مسألة في العربية، ثم تطورت في القرنين 16م و17م لتدل على امتحان مدرسي Composition scolaire... على أن موضوع Thème في مصطلحات تحليل الخطاب الدلالي، لدى دومينيك منغينيو الذي أورده مرادفا لمصطلح: Topique.[1]

إذن، فالمصطلح اتخذ أشكالا عديدة، وتطوّر مسايرا للعلوم المختلفة، متخذا تسميات كثيرة ترتبط معظمها بطبيعة العلم الذي ينتسب إليه، وهذا ما جاء موضحا بشكل أكبر في معجم المصطلحات الأدبية بما نصّه:

- التيمة (الفكرة الأساسية): Thème.[2]
- الفكرة المحورية المهيمنة على محل أدبي.
- مقال أو بحث صغير في المدرسة أو الجامعة.
- الفحوى أو المغزى المتضمن في أي عمل أدبي.

والملاحظ في هذا التعريف المختصر أنّه أعطى مفاهيم جديدة لهذا المصطلح، مستمدة كلها من الاستعمال المحدد الذي عرف به داخل الحقل الدلالي الخاص به، فبين العمل الأدبي، والدراسة

1 ينظر: يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم، الجزائر 2008، ص 154/153.

2 إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، ع 1، تونس 1986، ص 17

الجامعية تباين كبير في استعمال هذا المصطلح، وهذا ما يضمن كون المصطلح واسع الاستعمال متشذر الأبعاد والمفاهيم.

وقد أشارت الباحثة منيرة شرقي إلى هذا فقالت" انتقل النقد الموضوعاتي إلى ميدان النقد العربي الذي خصّته بالشرح، وبالإضافة أيضًا، وأوّل ما لوحظ هو تعدد المصطلحات التي اقتضتها ترجمة المصطلح (Thématique)، أو تعريبه وأبرزها (الموضوعاتي، الموضوعي، الجذري التـيمي، التيماتيكي، الظاهراتي) والشـائع منها هو الموضـوعاتي الـذي تم اختياره في صفحات الدراسة بغية الاسهام في توحيد المصطلح، استعمل سعيد علوش مصطلح الموضوعية في كتابه "النقد الموضوعاتي" لكنه استخدم مصطلحا آخر هو "التيمية" في معجمه النقدي ودّل بهما على الميدان النقدي ذاته، والذي قال عنه:" نمط متأصل في النقد ويعمل على تقسيم العمل إلى وحدات كبرى دالة".[1]

وبنفس المعنى أورد سعيد علوش في معجمه تحت مسمى تيم: " اصطلاح انطباعي إلى حد بعيد تستعمله (ج. ب ويبر) في معنى خاص، ويطلق (التيم) على صورة لمحة ومنفردة نجدها في عمل كل كاتب المعدلة بحسب مناطق التماثل".[2]

1 منيرة شرقي، النقد الموضوعاتي، مجلة الآداب (مج 19) ع 01، الجزائر، جامعة العربي التبسي، 01 ديسمبر 2019، اطلع عليه يوم 28 أفريل 2024.

2 سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة 1، 1985، ص 56.

ومن التعريفات التي أوضحت مفهوم التيمة، رغم تشابك مصطلحاتها وتداخل عباراتها، ما جاء في كتاب "فنون النص وعلومه"، وقد أورد مجموعة من النقاط المهمة التي لابد من ذكرها وجاءت هذه النقاط على النحو الآتي:[1]

- مفهوم التيمة المستعمل بكثرة مفهوم حدسي على العموم.
- جان بيير ريشار: مبدأ مادي يتوفى التنظيم، قالب أو شيء ثابت حوله.
- التيمة مفهوم، أو تعبير عن تلوين عاطفي يجعلها خارج علوم اللغة.
- التيمة: بناء وليست معطى ولهذا ترتبط بالموضوعاتية.

وعليه، فإننا نلاحظ الفرق الشاسع بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي لكلمة (التيمة) وهذا يرجع من دون شك إلى أن المصطلح يتميز بأمرين مهمين لابد من ذكرهما:

أولا: أن الاستعمال المتداول لهذه الكلمة على أيدي النقاد كان انطلاقا من الدراسات الغربية الأجنبية.

ثانيا: أن المصطلح وبمعناه الذي يتمثل في الموضوع والذي ذكره معظم الباحثين – كما أسلفنا الذكر – هو مصطلح جديد لم يعرف في العصور السابقة.

1. ينظر: فرانسوا راستيي، فنون النص وعلومه، تر: ادريس الخطاب، دار توبقال للنشر، المغرب، 2010، ص 230.

1-2 مفهوم الوطن:

1-2-1 لغة:

جاء في المصباح المنير: «وطن: مكان الإنسان ومقره، ومنه قيل لمربض الغنم، وطن والجمع أوطان، مثل: سبب وأسباب، وأوطن الرجل البلد استوطنه، وتوطَّنَهُ: اتخذه وطنا، مثل الوطن والجمع: مواطن مثل مسجد ومساجد».[1]

وذكر أبو بكر الرازي في مختار الصحاح: «و.ط.ن (الوطن) محل الإنسان، و(أوطان) الغنم: مرابضها و(أوطن) الأرضَ، ووطَنِها، و(استوطنها) و(استطنها): أي: اتخذها وطنا و(توطين) النفس على الشيء كالتمهيد و(الموطن): المشهد من مشاهد الحرب قال الله تعالى: ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة».[2]

وبنفس النسق عُرِف الوطن في المعجم الوجيز: «وطَنَ بالمكان (يَطِنُ)، وطنا: أقام به (أوطَنَ) البلَدَ: اتخذه وطَنًا، (واطنَهُ) على الأمر: وافقه عليه، والقوم: عاش معهم في موطن واحد (وَطَنَ) نفسه على الأمر وله: حملها عليه، (تَوَطَنَ) المقام: ويقال: توطنت نفسه على الشيء تهيأت له وتمهّدت».[3]

بناء على ما تم تداوله في المعاجم سالفة الذكر فإن مفهوم الوطن يحيل إلى المعاني الآتية:

- الوطن هو محل الانسان، ومسكنه.
- توطين النفس على الشيء حملها عليه.
- توطين النفس على الشيء التمهيد له.

1.أحمد بن علي الفيومي المقري، المصباح المنير، دار الحديث، القاهرة، 2003، ص 394.

2..محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1986، ص 303.

3.مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، دار التحرير، مصر 1989، ص 674.

وهي معاني تم تكرارها في كل مرة.

ومما جاء في المعنى اللغوي للوطن: «وطن: كل يحب أوطانه، وموطنه، ومواطنة، الإبل تحن إلى أوطانها، وأوطن الأرض، و واطنها وتوطنها، واستوطنها، وأرسلت الخبر من الميطان: من حيث توطَّنُ للسباق ومن المجاز: «هذه أوطان الغنم: مرابضها، وثبت في موطن القتال ومواطنه وهي مشاهده "[1]

والملاحظ هنا استعمال المصطلح بمعنى جديد ألا وهو ارتباطه بمضمار سباق الإبل.

والملاحظ عند بسط التعاريف المختلفة من مصادرها لمفهوم الوطن من الناحية اللغوية أنّ هناك تشابها كبيرا في تعريف هذا المصطلح قديما حديثا.

وتحت عنوان (ط – ن – و) وبعد إجرائه للتقليب الصوتي لهذه الحروف، أورد ابن دريد ما يلي:

(...والوطَنُ: حيث أوطنتَ من بلد، أو دارٍ، أو مكانٍ، يقال: أوطنت المكان، ووطَنتُ به: لغتان فصيحتان وأنا واطنٌ وموطنٌ، وأفعلت منهما أعلى وأكثر، والوطن والموطن واحدٌ، وجمع الموطِنِ مواطن، وجمع الوطَنِ: أوطان والمثل السائر: لولا الوطن لخرب البلد السّود، والوطن موضع الوطنِ».[2] وهو نفسه ما تم شرحه في المعاجم التي نقلنا عنها.

أما ابن منظور، وبعد ذكره للمعاني السابقة فقد اضاف في تعريفه للوطن:

1.أبو القاسم، أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، ج 2، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، لبنان (د ت)، ص 343.

2 أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، جمهرة اللغة (ج1)، تح: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، لبنان 1987، ص 928.

«وطَن: ... الموضع الذي يُوَطِّنُ لترسل منه الخيل...، والمَوْطَنُ مَفْعِل منه، ويسمى به المشهد من مشاهد الحرب... وتقول واطنت فلانًا على هذا الأمرِ إذا جعلتما في أنفسكما أن تفعلاه...وطَنَ نفسه على الشيء وله فتوطنت حملها عليه.)[1]

إذن، فابن منظور، وإضافة إلى المعاني التي ذكرناها أضافا مفهوما جديدا للوطن وهو مشهد الحرب، وكذلك الاتفاق على الأمر بين رجلين.

وعليه: فإن المعنى اللغوي لمفهوم الوطن يتمحور حول معاني محددة تم تداولها في المعاجم ملخصها:

-مشهد الحرب.

-الاتفاق على الأمر بين رجلين.

-الموضع الذي يُوَطِّنُ لترسل منه الخيل.

-والوطَنُ: حيث أوطنتَ من بلد، أو دارٍ، أو مكانٍ-وهو المعنى الأكثر شيوعا -.

-أوطان الغنم: مرابضها.

-توطين النفس على الشيء كالتمهيد

1-2-2 الوطن اصطلاحا:

بالنظر إلى التعاريف التي أوردناها سابقا، والتي تناولت الجانب اللغوي عن مفهوم الوطن اتضح أنّ استعمال الكلمة كان حسب السياق التي جاءت فيه، والمتأمل لاستعمال هذا المصطلح في العصر الحديث يدرك أنّ هناك نوعا من الحصر، والدقة في الاستعمال، وهذا ما أشار إليه الكاتب توفيق برو حين قال: «لم يكن لدى البدوي مفهوم الوطن الشامل الذي يضم هذه الوحدات

1 . ينظر: أبو الفضل بن منظور، لسان العرب، ج13، دار صادر، بيروت 2009، ص 452/451.

المتجانسة في تركيبها الاجتماعي، المتنافرة في علاقاتها السياسية كل ما يفهمه أنّ الأرض التي تنزل فيها قبيلته هي وطنه، فإذا تركها وانتقل إلى غيرها أصبحت وطنا لقبيلة جديدة تحلُ محل قبيلته فيها ويصبح له وطن جديد في أرض جديدة تحتلها قبيلته، وكل ما هو خارج هذه الأرض بالنسبة إليه في حكم الأرض الأجنبية، وكل ما ينتمي لغير قبيلته هو في حكم الأجنبي الغريب عنه، فوطن البدوي وطن متنقل باستمرار».[1]

انطلاقا من التعريف السابق، وجب التذكير بأنّ مفهوم الوطن لدى الرجل البدوي في العصور السابقة تختلف عن مفهوم الوطن في العصر الحديث من جهة، ومن جهة أخرى، وهذا ما سيتم توضيحه، فيجب أن نولي اهتماما بتنوع الرّؤى لمعنى الوطن بين العلماء من مختلف التخصصات فلهذا المصطلح تفرعات كثيرة لابد من الوقوف عندها.

وهو نفسه ما أشار إليه الباحث سامر سليمان حين قال:« المهم أن نحدد ما الوطن أولا، لأن الكثيرين لا يعرفون ما الوطن بالتحديد، فالوطن في أحسن تعريف له: هو الأرض والسماء، والماء والطعام والآباء والأجداد والتاريخ، لذلك تتمايز الأوطان، ومهما بعدنا من أوطاننا نحن إليها، وقد احتفى الشعر العربي بالوطن أيما احتفاء، رغم أن العربي قديما كانت مهنته الرعي، وانتقل كثيرا من مكان إلى مكان وراء المرعى»[2].

وأعطى الأستاذ جميل صليبا في معجمه الفلسفي نوعا من التميز في تعريفه فقال:« الوطن في الفرنسية partie، وفي الإنجليزية Nat Ireland وفي اللاتينية patria، الوطن بالمعنى العام منزل

1. توفيق برو، تاريخ العرب القديم، دار الفكر المعاصر، سوريا، 1996، ص 196.

2 . سامر سليمان، مجلة سيدتي، Www.saidaty.net نشر يوم 19 سبتمبر 2023، اطلع عليه يوم 25 جانفي 2024.

الإقامة، والوطن الأصلي: هو المكان الذي ولد به الإنسان ونشأ فيه، والوطن بالمعنى الخاص هو البنية الروحية التي تتجه إليها عواطف الإنسان القومية.

وأضاف:« يتميز الوطن عن الأمة (Notion)، والدولة (état) بعامل وجداني خاص، وهو الارتباط بالأرض وتقديسها لاشتمالها على قبور الأجداد».[1]

ويتخذ مفهوم الوطن من الناحية السياسية معايير خاصة تختلف اختلافا تاما –وإن كان هناك تشابه في بعض الجزئيات – عن المفهوم الفلسفي، وكذا المفهوم القديم فقد ورد في موقع" موسوعة البحوث الشاملة" ما ملخصه:[2]

– الموسوعات السياسية لا تختلف من المعنى اللغوي.

– في معجم المصطلحات السياسية الدولية: «الوطن هو الذي سكنه أمه، يشعر المرء بارتباطه بها وانتمائه إليها».

وكتوضيح لمفهوم الوطن في ظل الحضارة، والتفريق بينه وبين مفهوم الوطن عند البدوي يقول الباحث إبراهيم الأبياري:« ثم جرت الأزمان بهؤلاء القوم من خشونة إلى رفاهية، ومن بداوة إلى حضارة واستقرت الأرض تحت أقدامهم... وإذا بالوطن مرسوم بعد أن كان غير مرسوم، وإذا هو شيء بعينه بعد أن كان شيئا بمعناه... ولقد كان وطن ذلك العربي في تلك الخيام المنصوبة أكثر مما هو في تلك الأرض المنصوبة عليها».[3]

---

1. جميل صليبا، المعجم الفلسفي للألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية (ج2)، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، 1982، ص 580.

2 . ينظر: موسوعة البحوث الشاملة، .www.bahth25.blogpost.com نشر في: 2003/12/23، تاريخ التحميل: 2024/03/27.

3. إبراهيم الأبياري، الوطن في الأدب العربي، المؤسسة المصرية العامة كتأليف والترجمة، مصر، 1962، ص:34

وبناء على كل ما سبق، وتوطئة لما يأتي ذكره، سيتضح لكل قارئ بعد عرض الشواهد نظرة الشعراء للوطن وكيفية التعبير عنه وهو ما يوضح بشكل كبير ما ذكرناه آنفا من وجود اختلاف حول مفهوم الوطن قديما وحديثا.

2- تجليات تيمة الوطن في الشعر العربي قديما وحديثا :

يعد حب الوطن قيمة من قيم الحياة، تفنّن الشعراء في تجسيد تعلقهم وانتمائهم القوي به كونهم يحملون رسالة ارتبطت بالوطن، فتيمة الوطن حاضرة في الشعر العربي القديم والحديث وحتى المعاصر وهذا ليس بالأمر المستحدث، فالانتماء للوطن والأرض على الدوام رائعة النبض والتوهج ووسيلة الشاعر العربي للإفصاح عن مشاعره الجيّاشة حزْنًا كان أو حنينًا أو فرحًا، فهو مرآة تعكس لنا الحالة الاجتماعية والسياسية في مختلف العصور الأدبية، ذلك أن الوطن يسكن قلب الشاعر أينما حلَّ وارتحل.

2-1 موضوع الوطن في الشعر العربي القديم:

إن موضوع حب الوطن قد نال تجسيدا شعريا في الإنتاج الفني الأدبي لكافة الشعوب في كافة الأزمنة، وبالرغم من أنّ هذا الموضوع قد وُجِدَ في الشعر العربي القديم، وظهر بصورة تعبيرية مختلفة متنوعة فإنه لم يحظ حتى الآن باهتمام الباحثين الخاص، من أسباب ذلك غزارة المادة العلمية وتوزعها وصعوبة جمعها.[1]

بداية كلامنا عن واقع الوطن في الشعر العربي القديم يكون بالشعر الجاهلي، فالشعر هو تعبير عن العواطف والمشاعر والأحاسيس وهو أيضا سِجل خالدٌ لتراث العرب وأيامهم، ولمّا كانت عاطفة العربي نحو وطنه قوية وطاغية وحبه له عظيمًا، ودفاعه عنه دفاع المستميت وشوقه إليه

1 ينظر: وهيب طنوس، الوطن في الشعر العربي في الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر ميلادي، ط1، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة حلب، سوريا، (1975-1976)، ص 4-5

كبيرا في وقت البعاد والحنين، فقد حفظ لنا هذا السجل أشعار العرب في حنينهم إلى أوطانهم وديارهم إذا ما انتقلوا منها أو اضطروا إلى الهجرة عنها.[1]

لقد عبر الشعراء عن الوطن في الشعر العربي بألفاظ ومصطلحات عدة تختلف حسب مساحة دلالاتها المكانية، " أماكن السكن (المنزل والدار والبيت)"، المعنى الأوسع لمكان السكن (المعاني والربوع) بقايا أماكن السكن(الأطلال والدمن والآثار والرسوم)، معنى الوطن الواسع (المدينة والوطن والبلد والأرض).[2]

ولعلّ الوقوف على الأطلال والحنين إلى الديار القديمة واسترجاع سِجل الذكريات عند الشعراء الجاهليين جعل الاستهلال بذلك في مطلع قصائدهم بذكر الشوق وامتزاجه بالحنين، وكما تمّرحبا عليه سابقا من معاناة الانسان في العصر الجاهلي كثير الترحال والتنقل بسبب الظروف والبيئة الصحراوية القاسية مما كان يترك في قلبه لهيب الفراق وترك الديار والأهل والمحبوب وأبرز الشعراء الجاهليين الذين كتبت أسماؤهم بماء الذهب امرؤ القيس الذي يقول:[3]

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل * بسقط اللوى بين الدخول وحَوْملِ

كما نجد أنّ الشاعر الجاهلي جعل من الوطن مرآة للحالة العاطفية والنفسية التي عايشها وما يرهقه ويؤرقه من غمّ وهمّ فصوّر لنا الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تمر بها المجتمعات، فالوطن وعاء يحمل كل ما يعتري الإنسان آنذاك من أفراح وأفراح وما يحس به.

1 ينظر: محمد إبراهيم حوّر، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، دار نهضة مصر للطبع والنشر،1973، ص 38.

2 ينظر: وهيب طنوس، الوطن في الشعر العربي في الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر ميلادي، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، جامعة حلب، سوريا، (1975-1976)، ص 4-5

3 امرؤ القيس، الديوان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج 1، ط 5، دار المعارف الكويت 1996، ص 8.

يقول عمرو بن كلثوم:[1]

تذكرت الصبا واشتقت لمّا * رأيـت حمـولهـا أصلا حدينا

وأنزلنا البيوت بذي طلــوع * إلى الشامات تنفي الموعدينا

يكون ثقـالهـا شرقي نَجْد * ولهـوتـها فضــاعـة أجمـعينا.

أمّا عن موضوع الوطن في العصر الإسلامي والأموي، فقد هاجر المسلمون في سبيل الله من مكة إلى المدينة وهم يعتنقون أجمل عقيدة وأعظم رسالة ومع ذلك فإن حب الوطن يسيطر على مشاعرهم معلقة قلوبهم به، فها هو ابن أم مكتوم رضي الله عنه يغلبه الحنين وهو آخذ بذمام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت الهجرة فيقول:[2]

يا حبذا مكة من وادي * أرض بهــا أهنــئ وعـوّادي

أرض بها ترسخ أوتاري * أرض بها أمشي بلا هادى.

وهذا خبيب بن عدي رضي الله عنه عندما أسرهُ كفار قريش وأجمعوا على أن يصلبوه وصاروا يقطعون جسده، والدّم يقطر منه وهو ثابت لا يزعزعه ذلك ولا يثنيه عن عقيدته، فيقول معبرا عن غربته عن وطنه وشوقه إلى مرع رأسه بعد ذكره لما عاناه من قومه :[3]

لـقـد جـمـع الأحــزاب وألـبــوا * قـبـائلــهـم واسـتجمــعـوا كـل مجمـع

إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي * وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي.

---

1 عمرو بن كلثوم، الديوان، تح إميل بديع يعقوب، ج1، ط 2، دار الكتاب العربي، لبنان 1999 ص: 91/90 .

2 ينظر: محمد إبراهيم حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، دار نهضة مصر، د ت، ص 148

3 شمس الدين بن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تح مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان 1971، ص 378.

كما نجد شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت رضي الله عنه ينشد بعد فتح مكة ويقول:[1]

عفت ذات الأصابع فالحواء * إلى عذراء منزلها خلاءُ

دِيارُ من بني الحسحاس** قفرٌ * تعفيها الروامس والسّماء

وكانت لا يزال بها أنسُ * خلال مروجها نعم وشاءُ

فحسّان في هذه الأبيات يبدي ذلك الشوق والحنين الشديدين إلى ديار سكنها، فخلدت في ذهنه ذكريات لا زالت عالقة في ذهنه، يشده الشوق إليها في كل حين.

وأنشد يقول أيضا وبشوق شديد إلى موطن قد مر عليه وتذكر فيه ماضيه:[2]

تطاول بالخمّان** ليلي فلم تكن * تهمّ هوادي نجمه أن تصوّبا

أبيت أراعيها كأني موّكل * بها لا أريد النوم حتى تغينا.

أما في العصر الأموي فحديثنا نستهله "بالفرزدق" وهو يحِنُّ إلى وطنه حينما كان يبيت مع صحب له فيتوهم أنّ ناقته تبكي حنينا إلى الوطن فتنهال دموعه قائلا:[3]

وليلة بتنا دير حسّان نبّهت * هجودا وعيسا كالخسّيات صُمرًا

بكت لناقتي ليلا فهاج بكاؤها * فؤادًا إلى أهل الوريعة أصودًا

وحنّت حنينًا منكرًا هيجت به * على ذي هوى من شوقه ما تنكرا

---

1 حسّان بن ثابت، الديوان، شرح: عبا مهنا، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 2، 1994، ص 17، 18.

2 نفسه ، ص 17، 18.

**الخمّان: من نواحي البثينة من أرض الشام.

3 ينظر: محمد إبراهيم حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، دار نهضة مصر، د ت، ص 161/160.

أما عمر بن أبي ربيعة يبلغ به اليأس منتهاه وهو بعيد عن وطنه حيث أنه لن ير منازله مرة أخرى، فلا دار أحبابه ولا موطنهم موطنه ولا يملك من حقوق ومن مقدرة إلا أن يرسل صرخته التي تمثل أبعد ما يصل إليه انسان يحنّ إلى وطنه حيث يقول:[1]

هيهات من أمة الوهاب منزلنا * إذا حللنا بسيف البـــحر من عَـدَن

وحلّ أهـلك أجـيــادا فلـيس لنا * إلا التـذكر أو حـظ من الحزن

لا داركم دارنا يا وهب أن نزحت * نـواك عنـّا، ولا أوطـانكم وطني

فلسـت أمــلك إلا أن أقــول إذا * ذكرتُ ألا يبعدنك الله يا ســكني.

كما نجد "جرير" وكأن الحزن يتجسد في غربته، ويكفيه حزنا ذلك الفراق بينه وبين أهله وأحبابه ووطنه ويقول:[2]

كأني بالمد يبر بني زكّا * وبين قرى أبي صفرى أسير

كفى حـزنًا فـراقهم وإني * غـريـــــب لا أُزار ولا أَزُور

و"العرجي" من شعراء الرقة والهوى، رقيق العواطف حين يذكر الديار يحاول أن يخضعها الرقيق الأحاسيس ووعيه الكامل للحنين إلى الوطن ويبكي حين يذكر أحبابه وديارهِ فيقول:[3]

هـاج قلـبي بعدما كان سكـن * لبـريــق لاح مـن نــحــو الـيــمــن

فاعتـرافــي الشـوق لــما خِلته * مــوهـنًـــا، لــجَّ وهْــنًـا والــحــزن

فالحمى منه حمى العرج* إلى * أضرب** الأحسا*** إلى القصر قمن

---

1 محمد إبراهيم حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، ص 157/156.

2 . ينظر: نفسه، ص: 162.

3. ينظر: نفسه، ص 164.

**الأضرب: الروابي الصغيرة.

***الأحساء والقصر: موضعان.

تلك أوطـان لليـلـــى ولـــنا * ما يـهـــيـج ذا الهـوى إلا الوطـــن.

إذن، فليس هناك ما تغير في التعبير عن الوطن بين العصور الثلاثة سالفة الذكر، فما نراه ونلمسه فيما اخترناه من نماذج هو سيطرة الحنين النابع من الغربة أو النفي على الشاعر، مما حمله على مجاراة سابقيه في البوح عن ذلك الشوق، ولو أن ذات الوطن الذي حن إليه لربما لا يكون مسقط رأسه.

وأمّا العصر العباسي فلعل أشهر الشعراء الذين أبدعوا في التغني بالوطن وتفجير الأحاسيس حوله "المتنبي" الذي يقول:[1]

بم التعلّل لا أهل ولا وطن * ولا نديـمُ ولا كـأس ولا سـكـن

ويقول "أبو فراس الحمداني":[2]

إنّ في الأسر لصبّا * دمعه في الخد صبّ

هو بالـروم مـقـيم * وله بـالشـام قـلـب

مستجدًا لم يصادق * عِوضـًا مـمّنْ يحبُّ.

فالشاعر هنا وقع أسيرا، فكان مما يؤنس نفسه ويزيل عنها الصبابة والشوق تذكره لبلاد الشام، والتي تعد بلده الذي نشأ فيها وترعرع في أحضانها.

1 . المتنبي، الديوان، دار بيروت، 1983، ص .471

2 . أبو فراس الحمداني، الديوان، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2017، ص 49

وقال "أبو تمام":[1]

كم منزل في الأرض يألفه الفتى * وحنينه أبدًا لأول منزل.

ومما ذكر في أشعار أبي فراس الحمداني في السجن ما يتضمن ألوانًا من حنينه إلى موطنه وديارة وأهله وقد شغل في الجراح التي نالته وهو أسير وكتب إلى والدته يعزيها:[2]

مصابي جليل والعزاء جميل * وظّني بأن الله سوف يديل

جراح وأسر واشتياق وغربة * أحمّل! إني بعدها لحمول

ما يلاحظ في هذه المختارات الشعرية، والتي تعود إلى العصر العباسي، هو أن الشاعر العباسي نسج كذلك على منوال سابقيه، فلم يحدث تغييرا في طبيعة شعره الوطني، ولا خاض في نوع جديد من أنواع الشعر الوطني، بل بقي محافظا على طريقة مُنى سبقه في الوقوف على الأطلال، وإن تغيرت العبارات واختلفت الكلمات فإن المضمون واحد ألا وهو الحنين إلى أماكن تمثل بالنسبة إليه ذكريات، قد يكون مر بها أو عاش فيها حقبة من الزمن.

أمّا عن الحنين إلى الوطن والتعلق به في العصر الأندلسي فلم يختلف عن سابقيه من إبداع الشعراء فيه، حيث عاش شعراء الأندلس ظروفا قاسية نتيجة بعدهم عن أوطانهم، ممّا عمّق تعلقهم بها، فعبّروا بشعرهم عن أسمى معاني الحب والشوق خاصة الشعور بالغربة في تنقلهم من المدينة الأم إلى مدن أندلسية أخرى، وما دفعهم للرحيل ففي مقدمة الأوضاع السياسية واضطراب الأحوال واضطهاد الحكام وكذا تعرض مدنهم لهجمات النصارى.[3]

1 أبو تمام، الديوان، مكتبة محمد علي صبيح، مر 1942، ص 423

2 ينظر: عبيدة الشلبي، شعر الغربة عن الوطن بين القديم والحديث، دار حرمون، قطر، 2008، ص: 12/11

3 ينظر مها روحي إبراهيم الخليل، الحنين والغربة في الشعر الاندلسي "عصر سيادة غرناطة" 635-897هـ، اشراف د. وائل أبو صالح، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية في نابلس فلسطين، 2007، ص 36.

يقول "أبو الحسن سهل بن محمد بن مالك الغرناطي":[1]

وحامل طيب لم يطيّب بطيبــه * ولكّنه عند الحقيقة طيّب

تألف من أغصـان آس وزهـرة * فمـن صـفتيه زاهـر ورطـيـب

تعانقت الأغصان فيه كما التقي * صبيب على طول النّوى وحبيب

وإنّ الــذي أدنــاه بـعـد فـراقـه * إليّ لـسرٌّ في الـوجود عجيب

منـاسبـة للبين كــان انتسابها * وكـلّ غريـب للغـريب نسـيب

فبالأمـس في أشـجاره وبــداره * وباليوم في دار الغريب غريب

لقد عبّرت أبيات ابن مالك عن هموم البعد والنوى، والحنين والشوق إلى الوطن، على الرغم من كونه داخل مرسيه، فقد ألهبت مشاعره، فبدت نبرته حزينة شاكية توحي بحبه وحنينه إلى وطنه

وها هو الشاعر "الملك يوسف الثالث" يحنُّ إلى مواضع في غرناطة، ونبرة الحزن والأسى والحسرة تملأ نفسه وقلبه على هذه المواضع التي ابتعد عنها مرغما يقول:[2]

إلى تاج السبيكة فالمصلّى * تعاذلــك الصـبابـة والـهيـام

إلى سكن الألى حلّوا بنجدٍ * شفاهُ – غير مفسدة – الغمام

ربـوع عافـها قلــبي بكـرم * كـما عافـت مـواردها الحمـام.

ويقول "أبو الحسن بن الصباغ العقيلي" وكان لغربته أثر عميق في نفسه فحَنَّ إلى أيامه الماضية وإلى ربوع غرناطة فقال يتشوق إلى بلده ويصرح بلوعة فراقه يقول:[3]

وحيّا ديارًا في رُبى غرنـاطــة * وإني بذلك القُرب فيه ضنين

خليلي، لا أمـرٌ بأربعـها قفـا * فعندي إلى تلك الربوع حنين

1 مها روحي إبراهيم الخليل، الحنين والغربة في الشعر الاندلسي "عصر سيادة غرناطة" 635-897هـ، ، ص 39

2 ينظر: نفسه ، ص نفسها .

3 نفسه، ص :51.

ألم تريـانـي كلمـّا ذرّ شـارق * تضاعف عنـدي عبرةٌ وأنين.

وهذا "ابن زيدون" يصور حنينه إلى موطن أحبابه، ومعهد صباه وشبابه إذا كانت الذكريات ترسل ظلها إليه وتنشر ثوبه عليه، مرسلا إلى تلك الديار تحية تفيض حسرة ولوعة وتسيل أدمعه كاللؤلؤ فيقول:[1]

على الثّغَبِ* الشهدي منّي تحية * زكت وعلى وادي العقيق ســـلام

ولا زال نـور في الرصــافة ضـاحك * بأرجائها يبكــي علـيه غمـام

معـاهـد لهو لم تـزل في ظلالـهـا * تُـدار علينـا للمجـون مُـــدام

1 ابن زيدون، الديوان، تح حنا فاخوري، ج 5، دار الجيل، بيروت 1990، ص 491.

*الثغب: الغدير

2-2 موضوع الوطن في الشعر الحديث:

إنّ الأدب مرآة يقوّم بها الإنسان عواطفه فينزع منها ما هو ضارٌ به وبالآخرين، وذلك بمشاركة الشاعر الناسَ همومهم الاجتماعية والسياسية وموافقتهم الوطنية والالتزام بقضايا وطنه وهموم شعبه عبر تصوير رؤى تُجسِد عمق الهوية الوطنية، ما يقتضي وضوحا وإخلاصًا في المحافظة على التزامهم وتصويرهم لوطنهم الأم والإشادة به، وبفعل الاستعمار الغربي واكب شعراء العصر الحديث الحوادث الطارئة التي أثرت على بلادهم فجعلوا قصائدهم متنفسا لمعالجة همومهم ومشاركة القراء ما تحمّلوه من مسؤولية تنوير الرأي العام وكشف المستور.

أمّا عن واقع الوطن عند الشعراء المحافظين كان على الدوام والاستمرارية "الوطن" جوهرة غالية ونفيسة في قلب ووجدان أمير الشعراء "أحمد شوقي" (1868-1932)، الذي يقدّس الوطن بلا مساومة ولا تغيير ولا خيانة، فيصرح وعلى نقيض من سبق ذكرهم من الشعراء منذ العصر الجاهلي بعبارة الوطن ويقول:[1]

وطنٌ يرُف هوى* إلى شبانه * كالروض رفّتــه على ريــحانــه

هم نظم حليته وجوهر عقده * والعقـد قيــمتــه يتيــم جمــانه**

يرجو الربيع بهم ويأمل دولةً * من حسنه ومن اعتدال زمانه.

أمّا "محمود سامي البارودي"، إمام الشعراء المحدثين وباكورة الأعلام في دولة الشعر الحديث ولمّا كانت حياة زعماء الثورة العربية في منفاهم حياة ألم وحزن الذي طال اغترابهم على

1 . أحمد شوقي، الشوقيات، ج3، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012، ص 222.

أرض الوطن وبعدت الشقة بينهم وبين أهليهم ولم يكترث لهم أحد، فجادت قريحة البارودي بشعر مؤثر في الحنين على الوطن وقال وهو في سرنديب يتشوق إلى وطنه:[1]

أكلّف النفس صبرا وهي جازعة * والصّبر في الحبّ أعيا كل مشتاق

لا في سرنديب في ذل ألوذ بـه * ولا أنيس يسـوى همّـي وإطـراقـي

أبيت أرعى نجوم الليل مرتفعـا * وفي قنةٍ عـزّ مرقاها على الرّاقـي.

كما تعرض الأدباء الجزائريون خلال الاستعمار الفرنسي كباقي الشعب الجزائري إلى أقسى أنواع التعذيب والتشكيل، ورغم هذه المعاناة القاسية والاضطهاد الفكري إلا أن صوت الأديب ثار ضد كل العواقب والموانع، ومن بين الفرسان الذين عبروا عن وفائهم للمبادئ السامية والارتباط بالأرض الجريحة شعراء الجزائر الذين جمعوا بين حبّ الوطن والافتخار به وبأمجاده والتمسك بالقيم السامية والتحرر من المحتل الغاصب "أحمد سحنون" (1907-2003) الذي أدرك حقيقة الاستعمار فكان دائم التحذير من مكائده ونشر الوعي الديني والوطني ليرفع لواء الحرية والاستقلال ويطهر وطنه من رجس الفرنسيين الأنجاس فيقول:[2]

بـلادي تربـيـت في حـضـنك * وذقت السعادة في أرضك

وشمت سنا الحسـن في أفقـك * فلم لا أمـوت وأحـيا لـك؟

ثم يأتي الدور على "محمد العيد آل خليفة" (1904-1979) الذي لم يكن بمنأى عن واقع الجزائر إبّان الاحتلال ، وما كان قلمه ليغفل عن تصوير موضوع الثورة وحبّ الوطن والتغني به وهو دأب الحركة الإصلاحية في الشعر الجزائري حيث تعددت أغراضه تماشيا مع الواقع

1. محمود سامي البارودي باشا، ديوان البارودي، تح على الجارم، محمد شفيق معروف، ج2، دار العودة، بيروت، 1997، ص 370.

2 .أحمد سحنون، ديوان، ط 3، ج1، دار النشر منشورات الحبر، الجزائر، 2007، ص 89.

الاجتماعي إذ برز الشعر الوطني الإصلاحي والاجتماعي والسياسي، فبعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين سنة 1931 التي كان الشاعر محمد العيد آل خليفة أحد أعضائها ،والذي ارتبط اسمه بالهوية الوطنية ومن يطالع شعره يقف على الروح الوطنية التي تظهر جليا في قصائده وبشكل جلي فيقول في قصيدته "استوح شعرك":[1]

قل للجـزائـر وهـي أم مرضـعٌ * مـثــل الـلّبـؤة أيُّ أم مــرضـع!!

إنّ الجـــزائر مرتـع معشـوش * مـــغـد ودق مـا مـثـلــه مـربّـع

قل للتنـويل بها سـلام طيّـب * مـتضـوّع كـأريجـها المتـضـوّع

كما جعل الجزائر هو أعز الأوطان وراح ينشد في قصيدته "عز الأوطان"[2]

إذا ما رمــت لـلأوطــان عـزا * فجد بالنفس واستـبق الفـداء

وإن حمل الخصوم عليك يوما * غمم لنضالهم وخض الدماء

ألم تر (جعفرا) قطـعت يــداه * بحرب الروم فاحتضن اللواء

وقدم نفســـه للمـوت سمــحا * فنال بهـا الشهــادة والثنــاء.

أمّا عن واقع الوطن عند الشعراء المجددين، لقد أصبح الوطن العربي في النصف الثاني من القرن العشرين مسرحا لهجرات واسعة عرفتها أقلام وأصوات أدبية من مختلف الأقطار العربية لكن يبقى المهجر اللبناني إلى أمريكا أو الأندلس الجديدة بتعبيرهم في النصف الثاني من القرن العشرين هي الأبرز في تاريخ الأدب العربي.[3]

1 .محمد العيد آل خليفة، الديوان، دار الهدى، عين مليلة، 2010، ص 135.

2 .محمد العيد آل خليفة، ديوان، دار الهدى، عين مليلة، 2010، ص 492.

3 .ينظر: الزروق عبد الحميد علي، ماجدة الهادي الماني، أسماء محمد حيدر، نوازغ الشوق والحنين لدى شعراء المهجر إيليا أبو ماضي نموذجا، مجلة البحوث الأكاديمية، lam.edu.ly، 2019/01/17، اطلع يوم 2024/05/04، ص 4-5.

ولعل من عوامل الهجرة ودوافعها تمثلت أولا في العامل السياسي فسوريا ولبنان كانتا خاضعتين للحكم العثماني الذي يضطهد فيه الحريات وتساق الناس إلى السجون والمعتقلات، فأخذ الناس يهاجرون إلى مصر ومن ثم صوب العالم الجديد نشدانًا للحرية وفرارًا من الطغيان السياسي ثانيها العامل الاقتصادي حيث الفقر والشقاء والحرمان.

مما دفعهم إلى الاغتراب طمعا في الغنى والثراء...فأنشأ أولئك الأدباء المهاجرين في تلك الديار أدبا يعبرون فيه عن مشاعرهم وعواطفهم وحنينهم إلى أوطانهم، ويصفون فيه البلاد التي أقاموا فيها، وكان أدبهم هذا هو الأدب المهجري الذي أصبح مدرسة أدبية كبرى، من مدارس الأدب الحديث ومذاهبه فقد كان أدباء المهجر بركة على الأدب العربي بعد عهد مديد من الجهود...فإذا هو اليوم مدني بكثير من عناصر جديته ونظارته.[1]

فأسسوا أندية وجمعيات تعبر عن تأملاتهم ومنجزاتهم الدبية فكانت الرابطة القلمية* والعصبة الأندلسية** وجماعة أبولو*** مدارس للتجديد في الشعر العربي حيث غلبت الإيحائية على التعبير في القصيدة فعرف الأدب العربي تلك الرومانسية العالمية التي عرفها الغرب قبلهم ليكون الشعر الرومنسي أكثر أنواع الشعر ارتباطا بالمنفى وحب الوطن.[2]

---

1 ينظر: الزروق عبد الحميد علي، ماجدة الهادي الماني، أسماء محمد حيدر، نوازغ الشوق والحنين لدى شعراء المهجر إيليا أبو ماضي نموذجا، مجلة البحوث الأكاديمية ، ص 5.

*الرابطة القلمية: جمعية أدبية نشأت في نيويورك 1933 هدفها التجديد في الأدب العربي (جبران خليل جبران، نسيب عريضة).

**العصبة الأندلسية: تأسست في البرازيل 1933 (الشاعر القروي، شفيق معلوف)

***جماعة ابولو: تأسست في المهجر 1932 على يد أحمد زكي أبو شادي، هدفها السمو بالشعر والعناية بالشعراء وغلب عليه الاتجاه الرومنسي، انظم إليها أبو القاسم الشابي، محمود طه.

2 ينظر: محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، مرحلة الرواد، منشورات اتحاد الكتب العربي، 1999، ص 8-9.

استطاع شعراء المهجر بثقافتهم العربية أن يصوروا آلام الأفراد والتعبير عن أحاسيسهم الذاتية والمشاعر الإنسانية ومن هؤلاء الشعراء وأبرزهم "إيليا أبو ماضي" (1889م-1957)، فمن أجمل أشعاره لوطنه لبنان يعتذر عن البعد عنه:[1]

لبنـان لا تعـذل بنَيِـكَ إذا هـم * ركبوا إلى العلياء كلّ سفيـن

أيـــهجـروك مـلالــة لكنـهـم * خلقوا الصيد اللؤلؤ المكنون

ورثوا اقتحام البحر عن فينيقيا * أم الثقافة مصــدر التمديـن.

أما جبران خليل جبران" (1883م-1931م) الذي يقول" يقوم الوطن على كاهل ثلاثة: فلاح يغذيه، وجندي يحميه، ومعلم يربيه، سوف يجيء يوم أهرب فيه إلى الشرق، إن شوقي إلى وطني يذيبني ولولا هذا القفص الذي حبكت قضبانه بيدي، لاعتليت متن أو سفينة سائرة شرقًا ولكن أي رجل يستطيع أن يترك بناءً صَرَف عمره بنحت حجارته وصفها، حتى وإن كان ذلك البناء سجنا له فهو لا يقدر أو لا يريد أن يتخلص منه في يوم واحد".[2]

يقول "جبران خليل جبران" في قصيدته "يا أيها الوطن المفدى":[3]

يا أيـها ذا الـوطـن المـفــدى * تـلــقّ بشـرا وتمـلّ السّعـدا

لـم يـرجــع العيـد مربيــا إنّمـا * أراب قومٌ منك ضلّوا القصدا

يا عيد ذكّر مــن تناســى أننـا * لـم نـكُ من آبقـة الـعبـدّى

كنّا على الأصفاد أحرارا سوى * أنّ الـرّزايـا ألـزمنـــا حـدّا.

1 إيليا أبو ماضي، الديوان، ج2، دار العودة، بيروت، ص 727.

2 مولود بن زادي، جبران خليل جبران، الحنين إلى الوطن وصعوبة الرحيل عن المهجر، موقع متخصص، mouloudbenzadi.wordpress.com، 2016/09/15، اطلع عليه يوم 2024/05/04

3 جبران خليل جبران، الديوان، الشاملة الذهبية، 2021/06/17، ص 107.

ويأتي الحديث أيضا على " نازك الملائكة" (1923–2007) المتفتحة على الثقافة الغربية ومنها طورت نصها الشعري والذي انعكس على شعرها وتناولها لقضايا الشعر المعاصر، حيث كانت تميل إلى الكآبة والتشاؤم وهذا ما ظهر في مجموعتها الشعرية الأولى "تراجيديا الحياة" والتي تضمنت بعض الرؤى الفلسفية التي سيطر عليها الحزن العربي بشكل عام من النكسات.

ويبقى الحنين إلى الأهل والوطن ساكنا في القلوب، وذلك لاغترابها في رحلتها إلى و.م.أ طلبا للعلم فتبث أشواقها وحنينها فتقول:[1]

ويسالنا الأفق أين نسافر؟ أين نسير؟

ومن أي شيء هربنا؟ و فيم؟ لأي مصير؟

وفي صمتنا

قلوب تدق، ووقع المنى

على يأسنا فرح لا يطاق فهيّا بنا

لنبحث عن جرح حزن صغير

وفي سيرنا نسمع الليل يسخر من سرنا

يلاحقنا بالظلام ويعزى الرياح بنا

يقول الطريق

لماذا نجوب الوجود السحيق

يلاحقنا أمسنا ورِانا ووجه صديق

وحتام نهرب من ظلّنا؟

1 نازك الملائكة، الديوان، ج2، دار العودة، بيروت، 1997، ص 301–303.

ونرحل لا رغبة في الرحيل ولكن لنهرب من ذاتنا من صراع طويل.

ومن أنّنا لم نزل غرباء

أما "بدر شاكر السياب" (1926-1964) رائد الشعر الحر، ومن أبرز الشعراء الذين يتجلى الشعور بالشوق والحنين في أشعارهم، حيث يحن إلى الطفولة والشباب والأهل والوطن، وقد توصل البحث إلى أنّ السيّاب لعوامل عديدة التجأ إلى ماضيه المفعم بالأفراح والراحة، تسلية لهمومه التي ألّمت به من كل جانب، ومن أهم تلك العوامل عاطفته الجيّاشة العميقة التي كانت تجرّه إلى الأيام الحالمة الجميلة التي لم تتكرّر أبدا.[1]

ومن قصائده حول الحنين والغربة إلى الوطن يقول في قصيدته "غريب على الخليج":[2]

الريح تلهث بالهجيرة*، كالجثام**، على الأصيل

وعلى القلوع*** تظل تطوى أو تنشر للرحيل

زحم الخليج بهن مكتدحون جوّا وبحار

من كل حاف نصف عاري

وعلى الرمال، على الخليج

جلس الغريب، يسرّح البصر المحيّر في الخليج

ويهدّ أعمدة الضياء بما يصعّد من نسيج

أعلى من العبّاب يهدر رغوة ومن الضجيج

---

1 ينظر: سيد رضا منير أحمدي، علي نجفي أبو بكر، نجمة فتحي زاده، أشكال الحنين إلى الماضي في شعر بدر شاكر السياب، مجلة الدراسات في اللغة العربية وآدابها، ع 11، إيران، 2012.

2 . بدر شاكر السياب، الديوان، المجلد الثاني، دار العودة للنشر، بيروت، لبنان، 2016، ص 6.

*الهجيرة: وقت منتصف النهار عند اشتداد الحر.

**الجثام: الكابوس

***القلوع: وهي شراع السفينة

صوت تفجّر في قرارة نفسي الثكلى :عراق

كالمدّ يصعد، كالسحابة، كالدموع إلى العيون

الريح تصرخ بي عراق

والموج يعول بي عراق، عراق، ليس سوى عراق.

كما عبّر في قصيدته "لأني غريب" الذي امتزجت فيها مشاعره بين اشتياق وغربة وحزن متدفق فيقول:[1]

لأني غريب لأن العراق الحبيب

بعيد، وأني هنا في اشتياق

إليه، إليها...أنادي: عراق

فيرجع لي من ندائي نجيب

تفجر عنه الصدى

أحسّ بأني عبرت المدى

إلى عالم من ردى لا يجيب.

ومنه فإن الحنين إلى الأوطان لا يقتصر على عوام الناس أو خواصهم بل إنه شعور وشغف يصيب ذوي الدماء النقية من المخلصين الذين تركوا أثرا أو ذكريات وتجليات في أوطانهم ليحولوا هذه إلى ذكريات في أماكن أخرى قد لا تشابه بيئاتهم الجديدة والتقاليد التي أتقن وحفظ.

وجاء ظرف قسري أرغمه على ترك تلك الذكريات كان لا بد له أن يتركها ليواجه معتركا وصراعًا نحيلا عليه اسمه حنين، ولعل أجمل صور الحنين إلى الوطن ما وصلنا من شعراء المهجر عندما كان الوطن العربي تحت الاستعمار، فكانت أنفسهم تحترق لهفا ودمعا غزيرا ينساب

1 بدر شاكر السياب، الديوان، المجلد الثاني، دار العودة للنشر، بيروت، 2016، ص 268.

انسياب مياه دجلة والفرات يتطلعون إلى يوم الخلاص تتقدمهم آمال وأحلام العودة إلى ربوع الوطن فالحنين الذي كان يختلج صدورهم هو ضيق وعجز ناجم عن فصل من بيئة منزلية محددة وغالبا ما تصحبه مشاعر شوق وقلق واكتئاب وحزن.

كما يشتد الشوق والحنين إلى مراسم الطفولة وقد تصل مشاعر الحنين على درجة اليأس والقنوط الشديدين فيعطي لتفكيره إجازة تؤدي به على مهاوي الاستسلام، الحنين إلى الأوطان ولهيب الشوق قد يجعلان المرء كريشة في مهبّ ريح عاصف تطويها أحاسيس مرهفة ونوازغ لا تطفؤها إلا أن يشم تراب الوطن، عندها ينقلب عنده الحنين إلى تعلق بأديم الأرض، يا حسن يوم تؤوب* فينا السفن نشمّ قبل الغروب ريح الوطن[1]

2-3 موضوع الوطن في الشعر المعاصر:

أمّا حديثنا عن تيمة الوطن في الشعر المعاصر، بداية يتوقف الباحث عند معنى الوطن والدلالات التي يحملها ويشير أنّ من ليس له وطن يعد بلا جذور طبيعية، ولعل أبرز الشعراء الذين حملوا راية الوطن في هذه المرحلة وهم كثيرون نذكر محمد الجزمي، خير الدين الزركلي خليل مردم بك، شفيق جبري، بدوي الجبل، علي كنعان، نزار قباني و أدونيس، و قد تتعدد دلالات الوطن في النص الشعري، وهذا التعدد ناتج عن اختلاف التوجهات الفكرية والرؤى السياسية للشعراء، إذ يستحيل أن ينتج نصًا دون ظلال، وهذه الظلال لا محالة واقعة في النص الشعري سواء ظهرت للقارئ أم خفيت.

1 ينظر: عبيد حسين سعيد، الحنين إلى الوطن، موقع القدس العربي، obeadhs@yahoo.com 16 يونيو 2011، اطلع عليه يوم 2024/05/07.

كما أنّ الشعراء المعاصرين أظهروا لنا حقيقة مُدهشة وهي أنّ الوطن الجغرافي لا خير فيه إذ لم يعانقه وطن روحي، فهم يطمحون إلى وطن إسلامي كبير، فوطن الشاعر لا حدود له يتجاوز حدود التاريخ والجغرافيا يقول الشاعر "يوسف وغليسي":[1]

زمني في منأى عن كل الأزمان

ما أغريني في وطن لا يتشبه بالأوطان

فاليوم الواحد فيه رمل ألوف الأيام

وإذن...، كم يلزمني من عمرٍ في وطني

حتى أصبح إنسان!؟

كما اتخذ شعراء الجزائر المعاصرون، نصوص شعراء الثورة مرجعا لهم ينطلقون منه للإضافة فالشاعر عبد الله حمادي تناص مع الشاعر مفدي زكريا في "إلياذة الجزائر" إيقاعا ولغة في نصه "الجزائر" المتضمن في ديوانه "البرزخ والسكين" فحمادي المتشبع بحب الوطن والمتشبث بالأرض الجزائرية، يصرح بذلك شعريا، وفي تصريحه الشعري لا نجد اختلافا بين نصه ونص الإلياذة:[2]

جزائر يا قلعة الثائرين

و يا قصة الخلد والخالدين

جزائر يا موطن المبتغى

و يا جنة الخلد والمنتهي

---

1 ينظر: محمد الصالح خرفي، الوطن ودلالاته في الشعر الجزائري المعاصر، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية 27875 / www.asjp.ceist.dz/en/article، 2007/05/15 اطلع عليه يوم 2024/05/08، ص 268-269-270.

2 المرجع نفسه، ص 270-272.

و يا موردًا سلسبيل الظلال

و يا نشوة من أريج الكمال

و يا ثورة في سجل النضال

و يا فتنة كللت بالكمال.

أمّا الشاعر الفلسطيني "محمود درويش" (1941–2008) وهو في منفاه خارج وطنه يتذكر أن له وطنا مفقودا في قبضة العدو فيصف حاله قائلا:[1]

حالة الاحتضار الطويلة

أرجعتني إلى شارع في ضواحي الطفولة

أدخلتني بيوتا، قلوبا، سنابل

منحتني هوية

جعلتني قضية.

كما نجد الغربة في شعر محمود درويش وهو في وطنه وهي غربة نفسية واجتماعية وفكرية نتيجة الاحتلال، فتارة يقع تحت سطوة اليأس والإحباط وتارة أخرى يتعلق بالأمل والحنين والشوق لوطنه الذي عهده من قبل ونعم به وبخيراته ويقول:[2]

عندما كنت صغيرًا

وجميلًا، كانت الوردة داري

والينابيع بحاري

صارت الوردة جرحًا، والينابيع ظمأ.

1 مي صبري عبد الرزاق العطار، صورة الوطن الواقع في شعر محمود درويش، المشرف أيمن محمد ميدان، كلية الإنسانيات، جامعة دمنهور، مصر، 2021، ص 214

2 المرجع نفسه، ص 233.

وهاهنا ... لا بد من وقفة للتأمل ، قبل الدخول في الجانب التطبيقي ، وهي أن هناك بونا شاسعا واختلافا واضحا بين مفهوم الوطن ، والتعبير عن الوطن بين القديم والحديث ، وهذا يعود لأسباب كثيرة من أهمها المحيط الذي يعيشه الشاعر وكذا الاختلاف الواضح بين الظروف الاجتماعية التي عاشها أولئك الشعراء ، والتي في غالبها كانت بيئة بدوية ، ليس فيها ما يشير إلى المدنية ، بينما لعب التطور الاجتماعي والسياسي دورا هاما في توجيه الشعر الوطني في الحديث والمعاصر ، مما أنتج نصوصا شعريا وطنية جديدة تختلف كل الاختلاف عن تلك التي كانت في العصور السابقة ، وإن تشابهت معها في بعض الجوانب.

الفصل الثاني

انتهل مفدي زكريا من الفكر القومي، واتخذ منه ثوبا ألبسه جملة من شعره، فظهرت ملامح القومية وحب الوطن جلية في إنتاجه الشعري، وشغفه الأكبر كان بالوطن المغاربي.

لقب بشاعر(المغرب العربي)، وقد ركز في شعره القومي على جماليات المكان العربي والرموز المتعلقة به خاصة وأنه عايش فترة الاستعمار الأوروبي للبلاد العربية، مما زاده حماسا وإيمانا بضرورة الوحدة العربية كما شكلت القدس وفلسطين قضية محورية في شعره، وهذا انطلاقا من فكره الديني والقومي المتشبع بهما.[1]

مثله مثل الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان (1905-1941)، المعجب بماضيه وماضي أمته الإسلامية والعربية أيما إعجاب، وبدور سلفه الصالح في إقرار حقيقتها الخالدة، وهذا الشاعر الذي أبان عن طبيعة القوة العربية المنافحة عن الوجود العربي، اعتزازه باللغة العربية ودور الدين الإسلامي ووعي تاريخ الأمة ومعاركها المشهودة، ودور الشخصيات المنافحة عن وجود الأمة ومعاركها المشهودة ودور الشخصيات المدافعة عن وجود هذه الأمة، مثل طارق بن زياد وصلاح الدين الأيوبي بالتصدي للغزاة الأجانب إبان غزو نابليون لفلسطين.

أراد إبراهيم من النابغين الموهوبين أن يجسد شعور الوحدة بين أبنائها، ومع كل ما كان للشاعر من ميول قومية بدت في حياته وعلى أشعاره إلا أنه لم يكن منتسبا إلى أي حزب قومي على الرغم من الظروف الاجتماعية التي عاشها تحت وطأة الانتداب البريطاني إلا أنه تمسك

1 ينظر: عبد اللطيف حجاب، جماليات المكان القومي ودلالاته في شعر مفدي زكريا، مجلة اللغة العربية، ع 3، مج: 24، الجزائر، ص 450.

بأرضه، وألّف فيه شعرا كثيرا ليكون دستورا للأجيال اللاحقة، أو لضعاف النفوس الذين باعوا العروبة والإسلام وما زالوا.[1]

انطلاقا من هذا الطرح جاءت الأعمال الأدبية لكل من "مفدي زكريا" و"إبراهيم طوقان" تحاكي التجربة القومية الوطنية، والفخر والاعتزاز، ولكسب معادلة الحفاظ على التراث والتاريخ والأمجاد والأرض، ورفض كل الهجمات الشرسة ضد وطننا العربي والإسلامي، فكانت أعمالهما الإبداعية مستوفية لتيمة الوطن وكل ما ينبثق عنها من مواضيع كالغربة، والحنين إلى الوطن، حب الوطن جمال الوطن، التضحية من أجل الوطن، نقد الواقع الاجتماعي والسياسي.

1-حب الوطن:

حب الوطن مفهوم ناشئ عن العمق الحقيقي للتفاني من أجله، لتنشأ بعدها العاطفة التي تلهم المواطن بما ينبغي أن يقدمه لوطنه، وفي كل المجالات، فيكسب حالة الانتماء القصوى التي تجعل منه سدا منيعا في وجه الأعداء والمتطفلين ومن أجل المجتمع ورقيه، تحدها المصلحة العامة بمنأى عن شخصية الوطن، فحب الوطن هو ثورة ملتهبة في النفس تصدر من عمق الأرض ورحمها فترسل نورها إلى القلب فتحرك حرارتها الأعضاء وتنير أمامها سبل الحياة.[2]

1 ينظر: ياسر أبو عليان، الاتجاه القومي في شعر إبراهيم طوقان، مجلة جامعة بيت لحم، مج 16، فلسطين، 1997، ص 68.

2 ينظر: محمد المسعودي، حب الوطن ووعي المواطنة، مجلة القافلة، www.alarabiya.net تريخ النشر: 1-11-2020، تاريخ التحميل: 3-05-2024.

1-1 حب الوطن عند مفدي زكريا:

مفدي زكريا شاعر الثورة الجزائرية، ومؤلف النشيد الوطني الجزائري "قسما"، المتصفح لشعر مفدي زكريا يجد أنه لم يكتب قصيدة إلا وضمنها ما يتعلق بالوطن، الذي بلغ عنده حد التقديس فالشاعر الثائر أخلص لوطنه، وكان هدفه الأول هو "الجزائر "شعبا، وأرضا، وقيما، وهكذا بات الناطق الرسمي باسم فئة اجتماعية معينة، يحمل ايديولوجيتها ومطالبها ويدافع عن مصالحها[1].

بدايتنا ستكون من إلياذة الجزائر، قصة أطول قصيدة عن تاريخ شعب الجزائر، هو ديوان شعري كبير بلغ ألف بيت وبيت، دوّن فيه الشاعر قصة الجزائر منذ فجر التاريخ إلى ما بعد الاستقلال، وبين ثنايا الإلياذة حب، واعتزاز، وشوق، وحنين، ودفاع عن أمجاد هذا الوطن الحبيب فتتفجر عواطفه وأحاسيسه ليبدع في وصفه وتعلقه وحبه لهذا الوطن، فيقول:[2]

جزائر يا مطلع المعجزات * و يا حجـة الله فـي الكائنـات

و يا بسمة الرّب في أرضـه *و يا وجهه الضاحك القسمـات

و يا لوحة في سجلّ الخلود * تموج بها الصـور الحالمـات

و يا قصة بثّ فيها الوجود * معاني السمــوّ بروع الحيـاة

وقال أيضا:[3]

جزائـــر يا لحــكايـة حبـــي * و يا من حملت السـلام لقلبـي

و يا من سكبت الجمال لروحي * و يا من أشعت الضياء لروحي

1. ينظر: الحاج جغدم، البعد الوطني في الشعر الثوري الجزائري الحديث مفدي زكريا نموذجا، مجلة أدبيات ع 2، الجزائر، 2019، ص 48.

2. مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص 83.

3 . المصدر نفسه، ص .84

الملاحظ في المقطعين السابقين استهلالهما، وفي كثير من الأبيات الشعرية باستعمال حرف النداء "يا"، وهو لكل منادى قريب أو بعيد لتنبيهه ليجيب، لأن النداء في حد ذاته تنبيه للمدعو، فقد استعملها تسع مرات، وهذا دليل على قوة الشاعر وفطنته في وصف بلده وحبه له، واستخدام هذه الأداة بهذا الشكل إعلان لحادثة عاشها الشاعر، ويريدنا أن نعيشها معه، هذا وقد ابتدأ الشاعر إلياذته بعبارة "الجزائر"، وهي منادى علما أو نكرة مقصودة مبنية على الضم محلها النصب، لأداة محذوفة، والتقدير "يا جزائر"، والنداء هنا مقصود للإقناع والتباهي بعظمة البلاد.[1]

وما يجذب انتباهنا هنا ذكر اسم "الجزائر" قرابة 48 مرة، وهو مكان مفتوح، ودولة تصنع المعجزات، فما كان مستحيلا يصبح ممكنا، أما في المقطع الثاني فإن الشاعر يذكر أنها كل حبه فهو يروي لنا حكاية الأمن والأمان، فيسعد بذكرها ويشع النور والضياء،

ويقول في اللهب المقدس وكأنه يناجي حبيبته فيتذكر مواقع قد التقيا فيها معا :[2]

جزائر مهما باعد الخطب بيننا ** تباكرني النجوى وتهتوي الذكر

حنيني إلى القصباء هاج مدامعي** وشوقي إلى بيلكور .....

وفي حي باب الوادي ماضي صبابتي **تركت بباب الوادي من كبدي شطري

فالشاعر هنا، ونتيجة لبعده عن وطنه الحبيب وشوقه الشديد له ادعى مجازا أنه ترك جزءا من بدنه وهو أهم جزء من الإنسان ألا وهو (الكبد)، والذي يستعمل في عرق الشعب الجزائري

1 ينظر: عبد القادر شارف، الظواهر الايقاعية في إلياذة الجزائر (مفدي زكريا)، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف، الجزائر www.univ-chlef.dz /djoussourتاريخ النشر: 06-2016، تاريخ تحميل: 13-5-2024

2 . مفدي زكريا، اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر 1987، ص 261.

تعبيرا عن الحب الشديد، فالأبيات وإن كانت في معنى " الحنين والغربة "، إلا أنها تضمنت أسمى عبارات الحب والوفاء والشوق.

ومن المشاعر الصادقة التي ترجمها شاعرنا مفدي زكريا في حب الوطن لا مثيل له، قوله:[1]

فيا أيها الناس...هذي بلادي * ومعبد حبـي وحـلم فـؤادي

وإيمـان قلبـي وخـال دينـي * ومبناه...في ملتي واعتقادي

عشقت لأجلـك كل جـميـل * وهمت لأجلك في كـل وادي

ومن هام فيك أحب الجمال * وإن لامه الغشم، قال بلادي.

" بلادي " التي يقصد بها " الجزائر"، التي تكررت (22 مرة)، يذكرها والسعادة تغمره، فهي تسكن قلبه متميزة له عن باقي البلدان.

وفي مقام الرد على المشككين في حبه لوطنه، وردا على من نعتوه بالهجران والنأي عن مسقط الرأس يثبت مفدي لخصومه أنه محب رغم البعد وأن بعده سبب من أسباب القرب، ويعتقد جازما أن حب بلاده يلهب فؤاده، كما يعتقد أن ذاته التي بين جنبيه تحمل كيانا عظيما ألا وهو (الجزائر)، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تغلغل حبه لوطنه في فؤاده فيقول :[1]

وقالوا هجرت ربوع البلاد ** وهمت مع الشعر في كل واد

أجل ... قد بعدت لأزداد قربا** ويلهب حب بلادي فؤادي

أرى في كيان الجزائر ذاتي **.....

1. . مفدي زكريا، اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر 1987 ص 37 .
2. مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص 117.

وما زلت عنها، بدنيا القلو**ب سفير القلوب بدون اعتماد

فأي حب هذا الذي يجعل من الشاعر سفيرا بدون وثائق، لا عمل له في هذه السفارة إلا انه محب لها بقلبه ووجدانه.

فما أثبته الشاعر في هذه الأبيات يعبر عن صدق المحبة لا محالة.

ويرى الشاعر في موضع آخر أنه لا بد من سبيل لإثبات هذا الحب ببراهين تتجلى في أحاسيسه المرهفة ومشاعره الجياشة فيقول :[1]

وأحببت اوطاني رضيعا ولم أزل ** أغني مع الدنيا بأمجاد أوطاني

ويقول أيضا:[2]

بلاد يهيج الوجد إن مر ذكرها ** وأهوى بها الشعب النبيل ويهواني

يلاحظ في هذا البيت وفي الأبيات التي سبقته أن الشاعر يعمد للتعبير عن حبه لوطنه لاستعمال عبارات معينة مثل (اللهيب، يهيج)، وهذه العبارات تدل على أن هناك حبا مميزا يختلف عن كل حب، ويزيد عليه بأن فيه هيجانا والتهابا، يصاحبه (هوى) يجعل من ذلك الحب وسيلة تواصل ووصال بينه وبين شعبه الذي يعيش في ذلك الوطن، فالمتأمل لها البيت يفهم أن هناك حبين قد تولد أحدهما من الآخر، ولا انفكاك بينهما ما دام هناك علاقة وال بينه وبين بلده الحبيب.

إلا أنه وفي موضع آخر من ديوانه (اللهب المقدس) يستعمل عبارة (الغرام) ويردفها بـــــ (الهوى)، محاولا وبكل ما أوتي من بلاغة وحسن بيان أن يعبر عن صدق المحبة بأجمل العبارات فلا يرى في مقام الحب مقاما أعلى من الغرام والهوى والعشق والهيام فيقول :[3]

1 . مفدي زكريا، اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر 1987، ص 261.

2 . نفسه، ص 271

3 . نفسه، ص 89.

سلاما ســلاما أرض الخلود ** سلاما يهد معالينا

فأنت في الكون دار الخلود ** غرامك صار ينادينا

فأنا حولك مثـــل الجنـود ** لسان هـواك ينـاجـــينا

نلاحظ في هذه الأبيات غزلا وطنيا بامتياز، أراد الشاعر أن يجعل من نفسه شخصية الرجل الثمل الذي يترنح في أحياء بلده، فيتخذ من تلك السكرة سبيلا للميل في زوايا الحي الذي أحبه وعشقه حتى الثمالة، وكأنه يرى في كل حي تجليا لجزء من حبه للوطن الكبير فلا يستثني من تلك الأحياء أي حي ويراها جميعها بلده الحبيب الذي ما ازل يعشقه وتصبو نفسه إليه.

ويشبه هذه الابيات في استعمال نفس آليات الوصف قوله: [1]

وحمام ريغة، بين الروابي** ترنح طوع الهوى والتصابي

وتغلي المواجد في صدره ** تطارحها نزوات الشـــباب

أيخفي هواه وفي راحتيه ** تموج المحاسن ملء الرحاب

وأنفاسه تغمر الصب دفئا ** فينسى حارة يوم الحسـاب

فالشاعر يصف محبوبته (الجزائر)، ويعدد محاسنها من خلال إظهار مدى تعلقه بمناظرها الساحرة، والتعبير عن هيامه وعشقه الشديدين لهذه المناطق من بلده الحبيب، وكأنه غزل ماجن بين شاعر ومحبوبته.

إلا أن الشاعر لم ير في " الجزائر " الوطن الوحيد الذي يستحق الحب، فالشاعر كما هو معروف عنه تنقله بين عدة بلدان عربية ف" تونس " و " المغرب الأقصى " من بين البلدان التي

1 . مفدي زكريا، اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر 1987، ص 230.

كانت له فيها ذكريات جميلة جعلت منها موطنا ثانيا له بالإضافة إلى بلده الأول" الجزائر" فيقول في تونس: [1]

بلاد بها قضيت عصر شبيبــتي ** تراوحني فيها المـــدارس والكـتب

صبوت بها حينا من الهر عابــثا **وأي فتى في أرض تونس لا يصبو

وما أنا إلا شاعر شفعه الهـــوى ** فهام .... فلا لوم على ولا عتـــب

سلام على عهد الصبابة والصبا ** وبشراك في التفكير بالجد يا قلب

وفي تعلقه بالمغرب الأقصى الذي عاش فيه، وكانت له فيه مواقف جميلة وذكريات يقول:[2]

لم أزل صادحا على كل غصن ** من ذي المغرب الكبير العتيد

عاشقا كل ما به كـــل من فيه ** ومن فـــوقه ومــن باللــحود

مغربي جنة أفي جنـــــــة الله ** ســـوى كل صـــالح وسـعيد

فالشاعر يرى في بلد بكل ما يعيش فوق أرضه وتحت أرضه معشوقه المفضل ومحبوبه المقرب، حتى أنه لا يرى وصفا يناسب هذا البلد مثل (الجنة)، وهذا إن دل فإنما يدل على الطمأنينة التي لقيها الشاعر في أحضان ذاك الوطن العزيز.

1 . مفدي زكريا، تحت ظلال الزيتون، موفم للنشر الجزائر، ص 30

2. المصدر نفسه، ص 126

ومن "تونس" إلى "المغرب" إلى "فلسطين"، وبالتحديد إلى " القدس الشريف"، وبأبيات في غاية الغموض والغرابة يعبر الشاعر عن تعلقه بوطنه الآخر الذي هو في الحقيقة موطن الجميع فيقول:[1]

وأبذل مع الحب حبا نستعين به ** فالحب ينقذنا والحب يرعانا

قدس العروبة والآيـــات شاهدة ** ما انفك نغمره حبا طوايانا

وأقوى من كل هذا ما جاء في " أمجادنا تتكلم " في التغني بحبه لوطنه :[2]

رفقا بلادي فأنت الكون أجمـــــعه **لولاك كنت بلادي هالكا فاني

لك الفؤاد وما في الجسم من رمق ** ومن دماء ومن روح وجثمـان

...

لك الرقاب وما في الكون من نفس** مدي يمين الوفا يا عين إنساني

لك الحياة فجودي بالوصال فما ** أحلى والك في قلـبي ووجـــداني

وفي ختام هذا الجزء، اتضح لنا أن الشاعر قد استلهم حبه للوطن من أغراض شعرية أخرى وعبر عن تعلقه بوطنه بما يستعمله العشاق والمحبون في خطاباتهم مع معشوقيهم، فكان يمد يد الوصال ويبوح عما يختلج في الخاطر، ومن جهة أخرى رأينا أن الشاعر يشبه في تعلقه بوطنه ما كان عليه حال الجاهليين في كونهم يحنون لكل وطن قد مروا به أو مكثوا فيه، ولكنه يختلف عنهم في تميزه بقوميته الظاهرة و عروبته التي جعلت منه شاعرا يحب كل وطن سكن فيه و عاش على ربوعه ذكريات جميلة، كما أنه يصرح بلسان حاله و مقاله بأن كل وطن عربي مظلوم و مغتصب فهو وطن عزيز على القلب قريب إلى الفؤاد.

1 . مفدي زكريا، اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر 1987، ص 249.

2 . مفدي زكريا، أمجادنا تتكلم وقصائد أخرى، تح: مصطفى بن الحاج بكير حمودة، مؤسسة مفدي زكريا، الجزائر ص 51، 52.

1-2 حب الوطن عند إبراهيم طوقان:

إن المتصفح لكتاب (الأعمال الشعرية الكاملة لإبراهيم طوقان) يجد أن قصائده الوطنية تطفح بالإحساس المرهف، لأنه عاش قضايا وطنه فعكست قصائده الإحساس العميق بالنسبة للوطن، فكانت قصائده نداءات صارخة يحث فيها أبناء فلسطين على خوض النضال ضد الانتداب البريطاني وتبني قيمة التراب الوطني، واستحقاقه بالتضحية في سبيل الله تعالى وتحريره وإثارة الشعور الوطني في أبناء الشعب، فأشعاره أصوات صارخة في أرجاء العالم باسم الحرية والوطن فجعل نصب عينيه قضية تحرير الوطن أمر واجب لا رجعة فيه.[1]

ويتجلى حب الوطن عند إبراهيم طوقان في: " كلمات من فلسطين "، وهي النشيد الوطني الفلسطيني قديما والنشيد الوطني للعراق حاليا، التي نظمها الشاعر يتغنى فيها بحب الوطن بلا نفاق ولا أحاسيس مزيفة فيقول:[2]

موطني الجلال والجمال...والسناء والهناء في رباك

والحياة والنجاة...والهناء والرجاء في هواك

هل أراك...سالما منعما

وغانما مكرما...هل أراك

في علاك...تبلغ السماك

موطني...موطني الشباب لن يكل

همه أن يستقل أو يبيد...نستقي من الردى

1. ينظر: غانمي محمد جواد اسماعيل، شريفي مكية، حب الوطن في شعر ابراهيم طوقان، مجلة الكلية الإسلامية الجامعية، ع 51، مج 13، العراق، 2019، ص 325، 326.

2، إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية كاملة، شركة كلمات عربية للترجمة والنشر، مصر ،2012، ص 292

ولن نكون للعدى كالعبيد...لا نريد

هذا المقطع من القصيدة والذي حظي بشعبية واسعة، والذي كتبها خلال دراسته الجامعية في بيروت، فأبان عن أحاسيسه تجاه وطنه بوصفه بأجمل الأوصاف متسائلا عن وقت الفرح والحرية والاستقلال، والذي يراه لا يحدث إلا بالجهاد لترفع راية البلاد عاليا فوق الأمم، والكل ينشد (موطني)ويرفض العبودية والأغلال، ويعتبر وقت الكلام قد انتهى وجاء وقت الثورة والانتقام.

ويظهر جليا من خلال هذه القصيدة أن الشاعر ينادي موطنه (فلسطين)، "موطني موطني" فهي تتكرر في بداية كل مقطوعة حيث لا نجد أثرا لحروف النداء، فالشاعر ينادي وطنه في حوار داخلي، إذ يصفه بالجمال والبهاء، وفيها الهناء والأمل فأنت الحياة كلها فهذا التكرار بداية كل مقطع ظاهرة تعبيرية تبرز ذلك الصراع الذي يكمن داخل النفس البشرية، ويضفي دلالة يحاول المتلقي كشفها.

كما يعتبر مؤشرا ومفتاحا للولوج إلى النص، كما أنها تحدث اهتزازا في نفسية المتلقي بإصدارها لجرس موسيقي عذب بإيقاع مرتب متسلسل، فهذه اللازمة تبرر مدى تعلق الكاتب بوطنه وحبه العميق له، فالوطن هو الحياة، هذا ما رسم متكررا هندسيا في بناء القصيدة، يحاول فيه الشاعر أن ينظم كلماته باستحضار عاطفته[1].

وفي مقاطع أخرى من النشيد (موطني) يكرر الشاعر بعض العبارات مثل :(هل أراك هل أراك)، ويستخدم أسلوب الاستفهام متسائلا عن احتمالية رؤية وطنه ينعم بالأمن والأمان، وهو

1 . ينظر: عبد المومن عجاج، محمد طول، شعرية التكرار في قصائد إبراهيم طوقان الوطنية، مجلة سيمائيات، ع 1، مج 18، 2022، ص 256، 257.

يرفض الذل والعيش المنكد، ويردد "لا نريد لا نريد"، فالفعل –يريد – مسبوق بأداة نفي دلالة على الرفض والعزم على تحقيق النصر.[1]

كما ألقى قصيدة بعنوان: "يا موطني" في حفلة توزيع الشهادات في مدرسة النجاح النابلسية فيقول:[2]

يا موطنا قرع الدعاة صفاته * أشجيتني ومن الرقـاد منعتنـي

يا موطنا طعن العداة فؤاده * قد كنت من سكينهم في مأمن

لهفي عليك و التهافي بعدما * نزلوا حماك علـى سبـيل هيـن

وما نلاحظه في هذه الأبيات تكرار النداء في شكل عمودي باستعماله أداء النداء "يا " التي تستخدم لنداء القريب والبعيد، ويخاطبه في حوار داخلي، وهو يتكسر ويتألم على وطنه، الذي طعن العداة في قلبه فأصبح ينزف، يمكن القول إن تكرار وسيلة وأداة لغوية تلعب دورا جماليا ومعنويا في الشعر الحديث، ويزيدها تأثيرها من الحرف إلى العبارة، فترداد كلمة يوحي بالشمول والسيطرة على النص وعلى الشاعر، فالشاعر يلعب دورا تعبيريا واضحا في القصيدة، يرسم ملامحها ويجدد مضمونها ويعبد طريقها، فيستميل ذهن القارئ.

وأبدع أيضا في ذكر حبه لفلسطين في قصيدة بعنوان " نشيد فلسطين":[2]

ديننـا حبـك يا هـذا الوطـن * سـرنا فيـه سـواء والعلـن

1 ينظر: عبد المومن عجاج، محمد طول، شعرية التكرار في قصائد إبراهيم طوقان الوطنية، مجلة سيمائيات، ع 1، مج 18، 2022ص .260

2 . إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية كاملة، شركة كلمات عربية للترجمة والنشر والتوزيع، مصر،2012، ص 209.

فاروا يا تاريخ واشهد يا زمن * قد رأينا النار يعلوها الرماد

ونهضنا نهضة تحيي البـلاد * ديننا حبك يا هــذا الوطن

وفي سياق المناجاة، يتوجه الشاعر إلى بلده الحبيب" فلسكين " قائلا:[1]

يا فلسطين هل لديـــك ســري ** غير ذي مطمع ولا متوان

ليس عندي سوى التلهف أهديه**وقـــلب مــولع بك عــان

وشعور نسقتـــــه في بـــياني ** ودموع أودعتها أشــجاني

...

أين منا الأبي؟ أين المــعزي ** أين منـــا معذب الوجـدان

وهاهنا لا بد من وقفة لتأمل هذه الأبيات الشعرية و استخراج كل ريد معجمي يصب في قالب " حب الوطن" عن الشاعر ، والملاحظ أنه استعمل عبارة (التلهف، الدموع، أشجاني) وهي عبارات تناسب معنى الشوق الذي كان الشاعر يعيشه من جهة، ومن ناحية أخرى تصب في قالب العشق والتعلق بالوطن، والوجد الشديد على فراقه والبعد عنه، فكأنه وباعتباره (شاعر الغزل)، يخلط بين محبوبته ووطنه فيناديهما بنفس العبارات ويكن لهما نفس المشاعر والأحاسيس بل يزيد في حبه وشوقه لوطنه على مجرد الشوق، ويجعل من بكائه مصاحبا لكل شعور يسطره في أبياته (دموع أودعتها أشجاني).

وعلى نهج الجاهليين في "الحنين إلى الديار" ينادي الشاعر (وادي الرمان) وهو قرية من قرى: "الجليل" ب فلسطين قائلا:[2]

فسلاما يـــا وادي الرمـــان ** فزت منك بالروح والريحان

1 إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية كاملة، شركة كلمات عربية للترجمة والنشر والتوزيع، مصر،2012، ص

2. نفسه ص 290 .

واحنيني إلى ديارك والرمان ** دان يظـــل أهـــل الديـــار

فكأن لغة الشاعر تفرض عليه مجاراة الشعراء السابقين في ذكرهم لرسم الديار، وحنينهم إلى ذكرياتها الجميلة، فكان السلام موجها إلى تلك القرية التي كانت حسب الشاعر (الروح والريحان).

ويجدد الشاعر خطاب الوصال مع هذه القرية في قصيدة أخرى فيقول: [1]

و يا وادي الرمان واها وعندهم ** حرام على المحزون أن يتنـــهدا

كأني لم أنزل ديـــــارك مـــرة ** ولم ألق في أهليك حبا ولا ندى

فهذا الذي يراود الشاعر إنما هو حزن على الفراق، دفعه إليه شوق وحب، وفي تداخل بين (حب الوطن، وشعر الغربة) يعبر" طوقان" عن مشاعر تجاه هذه القرية.

ثم يضيف في نهاية القصيدة: [2]

ومن عجب أنا شبيهان في الهوى ** بمن أنت تهوى، هل أطقت تجلدا؟

وفي قصيدة أخرى، يتخذ الشاعر وطنه أخا مقربا، فيعده بهذه المنزلة التي هي من أعلى المنازل وأقربها إلى قلوب البشر خاصة إذا كان هناك تباينا واختلافا بين الأخوين في المستوى، فإن هذا يثبت قوة الرابطة، وتمكن المحبة، وصدق العواطف فيقول :[3]

ونعيش إخوانا على **** محض المودة والوئام.

1 . إبراهيم طوقان، الاعمال الشعرية كاملة، شركة كلمات عربية للترجمة والتوزيع، مصر،2012، ص 111

2 . نفسه ص 112.

3 . نفسه، ص 120

وفي حنين إلى جبل (كرمل) ب فلسطين، يلجأ الشاعر إلى الوقوف على الأطلال معتبرا إياه سبيله الوحيد لإثبات تعلقه به ومدى حبه له قائلا :[1]

تلفت قلبي إلى الكرمل ** وحن إلى عهده الاول

ومرت به ذكريات الهوى ** رواجع من ذلك المنزل

فما يرى في هذين البيتين جلي وواضح، ولكن ثمة تعبير قوي ابتدأ به الشاعر هذين البيتين والمتمثل في قوله (تلفت قلبي)، وهو تعبير مجازي يقصده به شدة حبه لهذا الجبل الذي يذكره بذكريات (الهوى)، فالجبل حسب الشاعر موطن لأحداث غرامية جعلت منه محبوبا مثله مثل محبوبته التي كان يراها في ذلك الجبل.

1-3 حب الوطن بين مفدي زكريا وإبراهيم طوقان (مقارنة):

من خلال ما سبق تناوله حول " حب الوطن " عند الشاعرين، من ارتبط اسمهما بالوطنية ولمع نجمهما في الوطن العربي بل حتى في العالم، جزائري وفلسطيني جمعهما " حب الوطن" وحملهما مهمة الذود عنه بأقلامهما وتسخير شعرهما ليكون سلاحا في وجه العدوان الاستيطاني وهمجية المستعمر.

ما لاحظناه في المختارات الشعرية سالفة الذكر أن كل من " مفدي " و " إبراهيم " عبر عن حبه لوطنه وتعلقه الشديد به بطريقة واحدة ألا وهي الشعر، وما هو معروف عن الشاعرين أنهما كتبا في نفس الظروف وتحت نفس العوامل، فالنفي الذي عانا منه: مفدي زكريا "تجرع مرارته" إبراهيم طوقان"، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على صدق الشاعرين في هذه المحبة، فليس هناك أدنى شك في صدق تعلق الغريب بوطنه، وشدة حبه له.

1 . إبراهيم طوقان، الاعمال الشعرية كاملة، شركة كلمات عربية للترجمة والتوزيع، مصر،2012،ص 129

كما يتفق الشاعران في اختيارهما للألفاظ الواضحة والمعاني التي لا تحتمل التأويل ولا التعريض، فمقام الحب يختلف عن باقي المقامات، وذلك لأن الشاعر يريد الولوج إلى قلب محبوبه من أقرب الطرق، حتى وإن كان هذا المحبوب " وطنا لا روح فيه".

ومما يجب أن يذكر أن الشاعرين عبرا عن حبهما لوطنيهما بما يعبر به شعراء الغزل في قصائدهم، وهذا يرجع في نظرنا إلى وعي الشاعرين بمدى صدق الشعر الغزلي في التعبير عن الحب والوجدان، واعتبار ألفاظ الغزل من أصدق العبارات في ذلك.

ومما تشابه فيه الشاعران في هذا الموضوع، أنهما اعتبرا الوطن همزة وصل بينهما وبين من يحبون من الأشخاص، فحبهما للوطن اشتد للسب الأول والذي هو الغربة والبعد، أما السبب الثاني فلأن هذا الوطن يذكرهما بما جرى بينهما وبين من أحبا في الماضي فكان موطنا آخر لذكريات العشق والغرام.

إلا أننا لمسنا اختلافا بين الشاعرين في هذا الموضوع من جوانب أخرى من بينها:

– أن مفدي زكريا كان على خلاف براهيم طوقان كثير الترحال بين البلدان، فكان لا يفارق بلدا إلا وترك فيه شعرا يعبر عن حبه لهذا البلد، وتمسكه به، ف (تونس، المغرب) أوطان أخرى للشاعر تضاف إلى قائمة وطنه الأصلي، بينما لم نشهد في أشعار إبراهيم التي قمنا بذكرها ما يدل على هذا الأمر، فكل ما رأيناه منه هو تعلق بوطنه الأم (نابلس)، وتعبير عن تعلقه بمواضع معينة منها.

– سجلنا في بعض قصائد " إبراهيم " ما يسمى في الشعر القديم ب (الوقوف على الأطلال)، وهذا ما لم نره في قصائد " مفدي زكريا"، وهذا ما يدل على سعة إطلاع الشاعر، وتأثره بهذا النوع من

القصائد، وهو من التناص الذي ميز قصائد الشاعر، على غرار " مفدي زكريا " الذي لم يلجأ إلى هذا الأسلوب في أشعاره.

– ومما لفت انتباهنا خلال تصفحنا لدواوين الشاعرين أن قصائد "مفدي" قد غصت بهذا الموضوع فلا تكاد تجد موضعا يعبر فيه الشاعر عن حبه لوطنه ، إلا وتلاه موضع آخر في نفس الموضوع بينما سجلنا شحا كبيرا في ديوان "إبراهيم طوقان" ، ونعتقد أن هذه الندرة في هذا النوع من القائد راجع لسبب واحد، ألا وهو قلة ما وصل إلينا من أشعار في هذا المجال، فما نعرفه عن الشاعر أنه كان مراقبا في كل ما يكتب ويسطر، بينما تم الاعتناء بقصائد "مفدي زكريا" وحفظها ، ثم إن الشاعر "إبراهيم" وكما ذكر الباحثون قد عانى الأمرين بسبب أشعاره الوطنية، فقد ذُكر أن معظم قصائده قد صودرت ، وهذا ما نراه سببا وجيها في قلة القصائد في هذا الموضوع.

2–جمال الوطن:

لقد رسم الشعراء العرب عبر مختلف العصور صورهم الشعرية من الطبيعة (الساكنة والمتحركة) مشكلين من خلالها أجمل اللوحات فاختاروها موطنا لإبداعاتهم، وملجأ لأحلامهم، فلا نكاد نجد شاعرا له قضية وطنية إلا ويذكر الطبيعة في قصائده فكانت مصدرا أساسيا استقى واستفاد منه الشاعر العربي في العديد من إبداعاته الفنية، فأفرد لها قصائد شعرية مستقلة ومقطوعات خاصة تستوعب طاقته التصويرية وخياله الشعري، كما ساهم جمال الوطن في بعث الذكريات وإحياء الماضي خاصة الطبيعة الساكنة منها الذي أسقط عليها الشاعر مشاعر الحزن

والحب والحنين، مسلطا في ذلك الضوء على مواضع جمالها بما تحمله من أوراق خضراء وجبال ومياه جارية عذبة وصحاري.[1]

2-1 جمال الوطن عند مفدي زكريا:

عشق شعراؤنا المدن العربية فوصفوا بهاءها وألفتها، وأشادوا بجمالها الطبيعي وعمرانها وآثارها الحضارية، واشتاقوا إلى مرابعها وأهلها كما تعلقوا بأيامها وذكرياتها وتغنوا بها بصدق وإخلاص[2]، يقول متحدثا عن مصر:[3]

ولمصـــر دار العروبـة حـرة * تأوي الكرام وتسـند المتطـلعا

سحرت روائعها المدائن عندما * ألقى عصاه بها الكليم فروعا

وتحدث الهرم الرهيـب مباهيـا * بجلالها الدنيا فأنطق يوشـعا

والله سطـــر لروحــها بيمينــه * وبنهرها سكن الجمـال فأبدعا

كما يستحضر الشاعر مكانا عربيا آخر لا يقل أهمية عن سابقه، إذ طالما تغنى به الشعراء كلهم، وهو لبنان، حيث يقول في قصيدة" معجزة الصانع":[4]

لبنان...يا معجزة الصـــانع * يا لوحـــة من ريشة البـــارع

يا بصمة الرب على أرضه * وخـاتما من خطــه الصــانع

1 ينظر: فواز معمري، الطبيعة الساكنة والمتحركة في الشعر الجاهلي، مجلة المعيار، ع 3، مج 27، الجزائر، 2023، ص 402

2 ينظر: إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي الجزائري نموذجا، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1962/1925. ص: 264

3 مفدي زكريا، اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر، ص 63

4 ينظر، بوزيد ساسي هادف، المعجم الشعري في إلياذة الجزائر لشاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا، مجلة الباحث، ع 10، مج 04، الجزائر، 2012، ص 178-179

غزو لنا يا أرز...ما عشته * من مجد هذا الوطن الطالع

وغيره كثير من المعالم المكانية في الوطن العربي التي التفت إليها مفدي زكريا في شعره وبالأخص فلسطين، وتونس، ودمشق، وسلطنة عمان، وكذا مراكش الذي أبدع في إبراز الدلالات الجمالية لهذه الأوطان والمدن.

أما عن وطنه الجزائر وجمالها، فقد قسم " مفدي " إلياذته إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: هو قسم الجمال، أي الجمال الطبيعي للبلاد، فتراه يوظف ألفاظا وعبارات تتناسب والغرض المنشود فيذكر على سبيل المثال: بدعة الفاطر، روعة الصانع، جنة، غار منها الجنان، لجة، ومضة، الصفاء والجمال، الضياء، الغرام، عروس الدنيا، البحر، الزورق، نبع الجمال، الورد، الحب، الربيع، الأشجار الفارعات، النجوم ...، إلى غير ذلك من الألفاظ والعبارات التي وصف بها الشاعر الجمال الطبيعي الساحر الخلاب الذي وهبه الله سبحانه وتعالى لبلادنا الجزائر الحبيبة، بلاد المعجزات، وأثناء ذكره لجمال الجزائر الطبيعي لم يفته ذكر بعض المدن والأحياء الجزائرية التي ألبست هذا الجمال، فراح بصفته العالم الجغرافي والشاعر المتذوق يسرد مناطق كثيرة من ربوع الجزائر العميقة نذكر منها: حيدرة، الأبيار، بلكور، القصبة، ساحة الشهداء، باب الوادي، باينام، جبل الوحش، وهران، قصر البخاري، إلى غير ذلك من المدن الجزائرية الجميلة.[1]

كما تعددت صور المكان المفتوح في شعر مفدي زكريا بين الأماكن الطبيعية التي كانت محل أطماع الفرنسيين في الاستحواذ عليها، فقد تغنى مفدي زكريا بهذه الأماكن تحديا

1 . ينظر: بوزيد ساسي هادف، المعجم الشعري في إلياذة الجزائر لشاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا، مجلة الباحث، ع 10، مج 04، الجزائر، 2012 ص 178، 179.

للآخر (الفرنسي)أن هذه الأرض أرضه بوديانها وبحارها وجبالها وغاباتها، فشكلت بذلك أملا بالحرية للجزائري باعتبارها فضاء رحبا يحوي خلفه آلاف الثوار الذين يدافعون عن الوطن، وشكلت في الوقت ذاته مهدا للآخر (فرنسا) التي كانت تطمح في الاستيلاء عليها بقوة السلاح[1] و من هذه الأماكن نذكر:(الجزائر)والتي ذكرها شاعرنا قرابة 48 مرة، وذلك لشدة تعلق الشاعر بوطنه وحبه العميق له فيقول :[2]

جزائر يا مطلع المعجزات * و يا حجــة الله في الكائنــات

و يا بسمة الرب في أرضه * و يا وجهة الضاحك القسمات

ويا تربة تاه فيها الجــلال * فتلهت فيها القمم الشامخات

وألقى النهاية فيها الجمال * فــهمنا بأســرارها الفاتنــات

وأبدع أيضا في جمال الجزائر فقال:[3]

جــزائر يا بــدعة الفــاطــر * و يا روعة الصانع القادر

و يا بـــابل السحر من حيــها * تلقب هاروت بالساحـــر

ويسترسل مفدي زكريا في إلياذته ليذكر العديد من أحياء الجزائر العاصمة، وكذا البحر والزورق والورد، فيقول:[4]

أفي رؤية الله فـكـرك حــائــر * وتذهل عن وجهه في الجزائر

1 ينظر: بولالي توفيق، بوبكري أسماء، المكان في إلياذة مفدي زكريا،كلية الآداب واللغات، جامعة أحمد دارية أدرار، الجزائر، 2022/2012، ص 27.

2 مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ص 19.

3 المصدر نفسه ص 20

4 مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ص 23.

سل البحر والـزورق المستهـا * م كأن مجاذيفه قلـب شاعـر

وسـل قبـة الحـور ثـم بـها * مـنار علـى حـورها يتآمـر

مـن الـورد يحمـل أنفاسـها * لحيدر مثل الحـظوظ البواكـر

وأبيـار تـزهـو بـقديسـها * رفائيل يخفي انسـلال الجـاذر

تـبـاركـه أو إفـريقـيـا * على صلوات العذارى السواحر

ويحتار بلكـور فـي أمرهـا * فتضحك منه العيون السواحـر

وفي القصبة امتد ليل السهارى * ونهر المجـرة نشـوان ساهـر

وفي ساحة الشهداء تـتعالـى * مآذن تجـلو عـيون البصـائر

وفي كل حي غوالـي المشـي * وفي كل بيـت نشـيد الجـزائـر

ساحة الشهداء، بلكور، القصبة، هذه الأخيرة قلاع المجاهدين وجحيم الاستعمار الفرنسي بأزقتها الضيقة والمتشابهة التي تشبه المتاهة إلى حد بعيد، اتخذها المجاهدون حصنا ومنطلقا لعملياتهم الجهادية ضد الاستعمار الغاصب، إضافة إلى زخرفتها وبنيانها المتميز الذي يترك أثرا في النفوس المحبة للتراث، وكل ما هو عتيق.

ونختم موضوع جمال الوطن في شعر مفدي زكريا الذي أوردنا الحديث عنه كله من الإلياذة ليطربنا بشعر عن الجنوب الجزائري، ودور الحيوانات في مـساعـدة الثـوار آنذاك فيقول:[1]

وساحل بسكرة نجوى الأصيل * وهمس الرمـال بأذن النخـيل

تنافحك عن طلعها النسمـات * العذاب، يوقعن سحـر الهديـل

1. مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 75

ويبهرك منها انسكاب النجـوم * على وجنات جدولها السلسبيل

إن أول ما يلفت انتباه القارئ في شعر مفدي زكريا كثرة وتنوع الرموز الشعرية التي وظفها لأغراض إنسانية جمالية، تشير إلى بيئة الشاعر وطبيعة تكوينه الديني والوطني، والتي لها الاثر البالغ في تشكيل مادة الرموز الشعرية، ودلالتها المتعددة، فهي تفرض نفسها كبديل للغة المباشرة فيكسبها معان متعددة يفرضها السياق الجديد.[1]

يمثل المكان الطبيعي الحيز الجغرافي الذي عاش فيه شاعرنا تجربته الفنية، حيث اتخذها مصدرا ومكونا إضافيا آخر لرمزه الشعري، جاعلا من أسماء الأماكن والمدن دلالات إيحائية مشحونة بخصوبة المكان وأحداثه التاريخية مثل: (الأطلس، الاوراس، باينام، حمام ريغة، واد الصومام) وهذا الأخير الذي انعقد فيه مؤتمر الصومام سنة 1956، وترمز قالمة إلى الانتفاضة في 8 ماي 1945.

يمنح الرمز الطبيعة في شعر" مفدي "رومنسية فنية تجسد أبعادا إنسانية جديدة، ولذا ألفينا الشاعر يردد عينة من الرموز المستقاة من الطبيعة في شعره كالجبال والسهول والفجر والصبح والليل وكل هذه الرموز مفعمة بالدلالة التي تعبر عن الصمود والمقاومة، فالجبل يستدعي دلالة الصمود والصبر والجهاد في مواجهة الاستعمار الفرنسي.[2]

1 طارق بوهود، الرمز الشعري، الدلالات في شعر مفدي زكريا، مجلة المقال، ع 1، مج 1 الجزائر 2015، ص 119.

2 المرجع نفسه ص 126.

2-2 جمال الوطن عند إبراهيم طوقان:

لعب الرمز الطبيعي في شعر إبراهيم طوقان دورا هاما في التعبير عن آرائه وقضايا وطنه ومحاولة منه تصوير علاقة ذات دلالة بين القارئ والبيئة التي ينتمي إليها فالطبيعة أحدثت أثرا عميقا وهاما في نفوس الشعراء العرب بفصولها الأربعة وألوانها الزاهية وتنوع التضاريس فيها جعل من الطبيعة سحرا يجذب الشعراء إليها لتبدع قرائحهم بأجمل القصائد الشعرية وأرقاها.

ونبدأ بقصيدة "مصرع بلبل"، وقد استوحاها شاعرانا من إحدى رقصات مرغريتا الإشبيلية متأثرا بقصيدة "البلبل والوردة" للشاعر الانجليزي "أوسكار وايلد"، مرغريتا الإشبيلية تذكره بالملامح العربية الأندلسية كنز العرب المفقود، أما قصيدة "البلبل و الوردة" لأوسكار وايلد فهي تبرز تعطشه لمعرفة جماليات الشعر في الثقافات الأخرى، فالشاعر "إبراهيم " من خلال القصيدة عالج مشهدا اجتماعيا، مستعينا في ذلك بالرموز الطبيعية التي اختارها كوسيلة ليوصل أفكارا يريدها أن تبلغ عن طريق "البلبل" في هذه الحكاية ترمز الشاب المخدوع، أما الوردة فرمز بائعة الهوى، وأما الروض فيرمز للحانة أو الملهى.[1]

يقول في قصيدة" مصرع بلبل ":[2]

قـــدر ســـاقـــه أواه روضـــا * لم يكن طار فيه قبلا وغنى

فاستوى فوق أريكة ورمى عي * نية فيما نهاك يسرى ويمنى

وإذا الروض بهجة الروح طيبا * وظلالا وفتنة العيـن حســنا

1 ينظر: نادية دبي، الرمز الطبيعي في شعر إبراهيم طوقان، كلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة، الجزائر 2015/2014، ص 36، 37

2 إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية كاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، ص 207

وكأن الغـــدير يبني ضــلال * وهدى كلما استوى أو تثنى

فهي حكاية رمزية تمثل الواقع في مياه المدن الكبرى، حين يدخل غمارها الشاب قادما للبلدة الصغيرة التي تجذبه بين أحضانها فتذهب به في مزالق الضلال والهوان .[1]

ولو جئنا لتقصي الدلالات الأصلية لتلك الرموز التي استعملها الشاعر في قصيدة" مصرع بلبل "، فالليل طائر صغير مغرد يغري بألوانه الزاهية وصوته الحسن، وعادة ما يكون عليه هذا الطائر هو العيش في الطبيعة المفتوحة والأرياف الساحرة، فجاء به الشاعر من بيئته الأصلية ليجد هذا البلبل (الشاب)نفسه في وسط غير الذي ألفه، وهي أضواء المدينة وصخبها، فيجد نفسه ضائعا تائها في غيابات التمدن ومساوئه، أما " الروض" ففي دلالته الأصلية هي تلك الأرض المخضرة التي يوجد فيها كل أنواع الحياة والجمال وأماكن الراحة والترويح عن النفس، فرمز به الشاعر إل الحانات والملاهي وما تحمله من ملذات الدنيا الزائلة، و يقول في نفس القصيدة:[2]

ومضى البلبل الغريب يطـوف الرو * ض حتى انزوى محيا النهار

راح يأوي إلى الغصـــون، ولكـــن * كيف يغفو مشـــرد الأفـكـار

كأن فـــي الروض فـوق ما يتمـنى * مـن فنـــون الـثمار والأزهـار

غير أن ليـــــس فيــه طير يغنــي * أي روض يحــلو بلا أطـيار

ذاك ليل قضى على البلبل المنكود * لــولا يــد تصــدت علـيـــــه

في هذه الأبيات يتجلى لنا رموز الطبيعة لنقل معانيه وتجسيد أفكاره، وهي: الأزهار الغصون الأثمار، طير، الفجر، ليل، كهوف، غيوم، فمثلا نأخذ رمز الفجر، وهو بداية ظهور الخيط

1. ينظر: نادية دبي، الرمز الطبيعي في شعر إبراهيم طوقان، كلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة، الجزائر 2015/2014، ص 36، 37

2 . إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية كاملة، المؤسسة العربي للدراسات والنشر بيروت، ص 208.

الأبيض من الأسود من الليل، استعاره الشاعر للدلالة على ذهاب الهم والغم والحزن الذي سيطر على البلبل الشاب، ويأتي الدور على قصيدة" ملائكة الرحمة "التي يقول فيها:[1]

بيض الحمائم حسبـــه * أنـــي أريـــد سجـنه

رمز السلامة والوداعة * منذ بدء الخلق هنـــه

في كل روض فوق دا * نية القطوف لهن أنـه

ويملن والأغصان مـا * خطر النسيم بروضـه

يطرح عنوان النص " ملائكة الرحمة "جملة من الدلالات، بافتراض بناء تصويري ماثل أمام القارئ قائم على التشبيه "ملائكة الرحمة "التي شبه بها الشاعر "الممرضات" المحسنات إلى المريض فالمشبه هو الممرضات، والمشبه به هو ملائكة الرحمة، وبما أن الشاعر غيب المشبه واكتفى في العنوان بذكر المشبه به فإن العنوان ينحو منحى استعاريا ،وتغدو الاستعارة التصريحية هي الماثلة في بينة العنوان[2]، كما عجت قصائد الشاعر برمز الطبيعة، كما جاء في قصيدة" تفاؤل و أمل" فلقد وظف (الغراب ،الزهر، الثمر، الريحان)، وكان هدفه من هذه القصيدة إصلاح الشباب وإرشادهم لأنهم في نظره فجر وطنه وفخره .

2-3 جمال الوطن بين مفدي زكريا وإبراهيم طوقان (مقارنة):

يعد كل من " مفدي زكريا " و "إبراهيم طوقان " من أبرز الشعراء في العصر الحديث خصص كل منهما جزءا كبيرا من شعرهما في وصف جمال الوطن والافتخار به والحب العميق

1 . إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية كاملة، المؤسسة العربي للدراسات والنشر بيروت، ص 49

2 ينظر: ناصر يوسف جابر شبانه، قصيدة " ملائكة الرحمة " لإبراهيم طوقان، التشبيه الكبير والهندسة الإيقاعية، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، ع 1، مج 7، الأردن، 2011، ص 03،

للوطن، ولذلك كان شعرهما مليئا بالرمز الطبيعي كل حسب بيئته التي ينتمي إليها والدلالات التي يريد كل شاعر توظيفها وإثباتها عن طريق الاستعانة بالطبيعة والتعبير عن المشاعر الوطنية.

الشاعران يشتركان في النزعة الوطنية القومية، والحب العميق للأوطان، فاستعملا كذلك الرموز التي تقتضيها الظروف آنذاك (الجبال، الريح، الصخور، الأنهار، البرق) الغرض منها بعث دلالة القوة والصمود الذي يتحلى به الشعب الجزائري والفلسطيني معا، والمراد كذلك ترهيب العدو المستعمر بتماسك الشعبين وصمودهما في وجه أقطاب الشر والدمار، وكذا استعمالهما لرموز طبيعية فيها الأمل بالمستقبل الزاهر، ورؤية شمس الحرية والتي نذكر منها : (الشمس، الزهر الفجر، الربيع، النور، الحرية) التي عاشها " مفدي "، ومات " طوقان " وهي حسرة في قلبه.

كما عبر كل منهما مستعينا بالطبيعة للتعبير عن الهوية والانتماء للوطن فذكر كل منهما المناطق والأحياء والمدن، فنجد في شعر مفدي زكريا تنوعا كبيرا في ذكر المكان، وذلك لشساعة الوطن الجغرافي وتوزع المقاومة الجزائرية في كل ربوعه، بداية بالتغني بالولايات الجزائرية وجمالها وبعدها الأحياء العاصمية (القصبة، بيلكور) وكذا الصحراء الشاسعة، بل يتعدى الأمر لذكر الدول العربية والاعتزاز والانتماء إليها ك فلسطين ودمشق ومصر وتونس.

كما نلاحظ من خلال قراءتنا لأشعارهما اختلافا في الأسلوب الذي اعتمد فيه مفدي زكريا على الخطاب المباشر والوضوح والحماس، وذكر العدو باسمه دون تلميح، ونجد كذلك في شعره أسلوب الترهيب والوعيد، وأن ما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة، كما استعمل مفدي زكريا الرمز الطبيعي ليعبر عن أفكاره وقناعته ويقينه بأن هذا المستعمر لا يريد الخير للبلاد بل زرع الموت والدمار في كل مكان.

أما" إبراهيم طوقان " فنجد في شعره ميلا إلى السخرية والتلميح، أكثر من المباشرة والمواجهة والخطاب الواضح الصريح، فامتاز شعره بالرقة والجمال واستعمال الغزل في أكثر أشعاره كما يستمد من الطبيعة والتاريخ والحياة اليومية ما يساعده على إيصال مشاعره وأفكاره بشكل واضح ومفهوم كما لعب دورا هاما في إيقاظ النفوس وزرعا لأمل والحلم بغد أفضل.

ومما يجب أن يستخلص من الأعمال الشعرية لكلا الشاعرين أنهما أوغلا في وصف كل ما يتعلق بجمال وطنيهما من مدن وقرى وجبال وحتى العصافير كما سبق ذكره، وهذا ما يدل على أن للشاعرين قد أتيحت لهما الفرصة لزيارة هذه المعالم والتعرف عليها عن كثب، فلا يمكن أن يتصور أن شاعرا يصف جمال مكان ما دون أن تكون له نظرة مباشرة لهذا المكان.

ومما يجب أن يذكر في هذا المقام أن هناك غاية أخرى دفعت الشاعرين إلى الولوج في هذا النوع من موضوعات الشعر العربي، فبالإضافة إلى الإعجاب الشديد بمناظر البلد فإن هناك غاية خفية يحاول الشاعر الثائر إيصالها إلى أذهان الشعوب المستعمرة، تتجلى هذه الغاية في الحث على استرجاع هذه المناظر الجميلة والأماكن الرائعة من أيدي الاستعمار، وكأنه يريد أن يدغدغ مشاعر القراء ويبلغهم رسالة مفادها أن (المناظر التي وصفها لن تكون ساحرة كما ينبغي إلا إذا كانت في متناول صاحبها الحقيقي ومالكها الأصلي).

3-نقد الواقع الاجتماعي والسياسي:

3-1 نقد الواقع الاجتماعي والسياسي عند مفدي زكريا:

مهما ابتعد الشاعر ونأى عن وطنه، فإنّ تعلقه به يظل مستمرا، ومهما تنعم في الغربة بالاستقلال وقلت الضغوطات عليه، فإنّ غيرته على بني جلدته، وأسفه على ما يعانونه من ظلم

واحتقار وإذلال يدفعه دفعا إلى الدفاع بلغة القلم عنهم، ويتخذ الدفاع عن الوطن أشكالا كثيرة، من أهمها الهجوم على من كان سببا في تدهور الوضع الاجتماعي والسياسي، سواءً كان المقصود به المستعمر (أي المستدمر المحتل)، أو من باع جلدته وتنصل من وطنيته، فأصبح عونا للمستعمر على اخوانه، وقد رصدنا في إلياذة مفدي زكريا، ولهيبه المقدس عدة مواضع عبّر فيها عن سخطه ممّا يحدث على أرض وطنه، فاتجه ناقدا للوضع بأساليب عدة، فقد جاء في إلياذته:[1]

وجاعت فرنسا فكنا كراما * وكنا الأُلَى يُطعمون الطعاما

فأبطرهم قمحنا الذهبي * وكم تُبطر الصداقات اللئاما

وبَاعت فرنسَا ضَميرَ اليهُودِ * فباعَ ضَميرُ اليهودِ الذماما

وفي حادثة اغتيال الزعيم الذي سمّاه "كَحول" يقول:[2]

ولاذت فرنسَا بأصنامِهَا * تحاول بالدَّسِ كسْبَ الرهَان

فتغتالُ كَحُّولَ تُلقي دمَاه * على الطيِّبِ الواسعِ الصولجان

لئن خانَنَا الدَّهرُ في طيب * وأصغى مصَالِي لغدرِ الزمَان

...

وتأبَى الزعاماتُ كبحَ الطموح * فتصنعُ للخُلفِ شكلًا جديدا

وتُغري الكراسي ضعافَ العقول * كنارِ جهنَّم، ترجو المزيدا

وتغزو السيَاسةُ فكرَ الزعيم * فيصبحُ فكرُ الزعيمِ بَليدا

كأنَّ السياسة إعصَارُ جانٍ * ولم أرَ للجَانِ عَقلًا رَشيدا

1 . مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ص 53

2. المصدر نفسه ص 64

فالشاعر في هذه الأبيات لم يركز في نقده على عدو بعينه بل جعل كل مقصر سواء كان متعمدا أو مخطئا في حق وطنه ظالما لوطنه وخائنا له.

وفي التفاتة عتابية لزعماء وسياسة فلسطين، وكأنه يدفعهم إلى التأسي ببطولات أبناء الثورة الجزائرية، في استماتتهم من أجل الدفاع عن الوطن، وهذا ما يميز الشاعر العربي عن غيره فإن الخطاب القومي روحه التي لا تنفك عنه، وهدفه الذي يسعى لتحقيقه قال:[1]

فليتَ فلسطينَ ... تقفو خطانا **وتطْوي — كما قد طوينا — السِّنينا!

وبالقدسِ تهتمُّ ... لا بالكراسي **تميل يسَارًا بها ويمينا

إلّا أنّ نزعة الشاعر الدينية تأبى كل ما يمت بصلة إلى التبعية المقيتة، فحبه للإسلام وتسلحه بالقرآن الكريم جعله يوجه خطابا (لا سياسيا)، إلى فئة من المجتمع، قد فتنت بالحضارة الغربية التي كان للاستعمار اليد الطولي في انتشارها وتفشيها في المجتمع، فها هو يخاطب الشباب قائلا:[2]

غزا المذهبــيون عقـلَ الشبابِ ** بمــستــــوردٍ آفـنٍ آثــم

وزاغوا بهم، دونَ إســــلامهــم ** إلى مذهبٍ ليـــسَ بالسَّـــالم!

...

وقالوا: التقدمُ شـــــرعُ الحَيـــا * ة! وكم ركضَ الحُلم بالنائم؟!

وقالوا: الرجوعُ إلى الدِّين رجعي * وإن الحيَـــاة مَـــع القائــم

فضلَّ الشبابُ البـــريء انخـدا * عًا برقطاء في جلْدهَا الناعم

1 . مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ص 70.

2 . المصدر نفسه، ص 96.

ويتوجه شاعر الثورة بخطابه الشعري لينتقد واقعا اجتماعيا سلبيا، ساهم في انتشاره من حسبوا –على حد زعمه–على مثقفي البلد فقال فيهم:[1]

وبَعضهمُ: أغربوا في السخافة * وبالجهلِ يحتــكرون الثقافة

فينتقِـــــــدون، ويحتقـــرونَ * وينتقِصونَ الحجي والحصافة

وينتحـــلِونَ أَعَـــزَّ الكُنَـــى * ويمتهنون جَلَالَ الصحافة

ويختلسون جهُـــودَ سواهـم * بدون حيَـاء، ودون نظافــهْ

غرابيبُ سُودٌ، تُجيدُ النَّعيــق * وتختالُ في مشيهَا كالزَّرَافــهْ

وتَسْتَبْلِهُ الناسَ في كل شيء * فما أثبتَ العقلُ قالت خِلافهْ

...

قرامِطةٌ كالحجـــارةِ غُلْـفٌ * فيَالَمصيبتنا فـــي الثَّقـافهْ!

ومستشرقون، أحبوا الجَلَالا * ومُستَشرقون، أشاعوا الضَّلالا

وبالدم نكتـــبُ تاريخــنا * ونبلغ بالعدل فيه الكمَالا

ويقول واصفا زعماء السياسة من أبناء وطنه:[2]

وفــي الجــزائر نصّــابون همهـــم * على الدراهم مقصود ومحدود

وللزعــامة وجالـــسون ليـس لهـــم * من الزعامة إلّا الخمر والعيد

وللشعـــــائر هدّاجون، قد اجتمعوا * حول المقاصر أحداس قنافيد

وفي المجـــالس أصنام تـحركــها * يد المعــمر تحمـيها التـقاليد

وفـــــي القيــادة أبقــار مـعمــمة * للعار تدفعها فربانـــها السّـوء

1 . مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 102.

2 . المصدر نفسه، ص 227

وفي الوظائف أخشـــاب مسنـــــدة * لا يستوجبون للحس إذا نودوا

وفي الثياب ذئـــاب ليـــس يشبعها * إلّا دم الشعب مسفوح فمصفود

وما سـياســة ضرب فـــوق مائـدة * إنّ السياسة إنشـــاء تجديـــد

وما الزعـــــامة أقـوال وشقشـــقة * إنّ الزعـامة إصـــلاح وتشيـــيد

وما النضال، احتجاجات على ورق * إنّ النـضـــال كفاءات ومجـهود

وما الجهاد جـــــدار أن تكتـــــبه * إنّ الجدار كبعض النّاس جلمودا

إلّا أنه وفي حفل افتتاح المؤتمر الرابع للطلبة الجزائريين بتونس، سنة 1960، يضع إصبعه على جرح من جراح الوطن العربي عموما، والشعب الجزائري خصوصا، منتقدا لما يحاول الاستعمار الفرنسي فرضه على الشعوب العربية، وذلك من خلال تشجيعه لاستعمال لغته الفرنسية وإهمال اللغة العربية، وقد ساهم في دعم هذا التوجه بعض من أبناء الوطن، وأصبحت ثقافة التكلم باللغة الفرنسية عنوانا على التقدم، وفي المقابل كان التواصل باللغة العربية محتشما، فاستغل مفدي الفرصة قائلا:[1]

واتقوا الله في العروبة والفصحى * فكم صوبوا إليـــها النبـــالا

لغة العز والكرامـــــة والمجـــد * تهادى على الدهور اختيالا

تتحدى العصر الجديـــد وتغزو * أفق الفـــكر قـــوة وكـمالا

...

وكم رماها ذوو الجهالة بالعقم * ســـقاها وخســـة وضـــلالا

مسخوها وشوهـــوها انتهاكـــا * واتبعوها، سخافـــة وابتـــذالا

1 مفدي زكريا، تحت ضلال الزيتون، موفم للنشر، 2007، ص 32.

إذا تكلمنا على القصائد السالفة الذكر من الجانب المعجمي فإنّ الشاعر مفدي استطاع أن يدلل على محتواه الشعري، بوسائط لغوية وبعبارات مرجعية متكافئة جدا، فخوضه غمار التنديد والتصدي ألزمه التنويع والإكثار من المصطلحات التي تصب في هذا المجال ومن ذلك تصريحه لمصطلحات مثل: باعت الضمير، اللئام، ابن آوى، الزعامات، الطموح، جهنم، الزعيم، بليد الكراسي آثم، آفن، رجعي الأرذلين، السخافة، يختلسون، غرابيب سود، النعيق، قرامطة، الضلالا نصابون دجالون، قنافيد، أصنام، غربانها السود، ذئاب ذو الجهالة.

وكل واحد من هذه المصطلحات يخدم غرضا ذاتيا للشاعر وظفه في قالب شعري ليسمح لنفسه بالتعبير –كما يجب أن يعبر– عن الوضع المأساوي الذي آلت إليه البلاد وقد استلهم هذه المفردات من رمزية دينية تكاد تكون حاضرة –وبقوة – في كل قصائده ومن ذلك جهنم، الأرذلين غرابيب سود، الضلالا، واستوحى كلماته أيضا من رمزية طبيعية ومن ذلك ابن آوى، غربان ذئاب نعيق، وهي مصطلحات تعبر عن الغدر والخيانة والخداع والشؤم.

وعبر عن التيمة الجزئية والتي هي (نقد الواقع الاجتماعي والسياسي بعبارات بعضها تناص مع القرآن الكريم مثل قوله: "طمس الحق أبصارهم"[1]، "الأرذلينا"، "غرابيب سود"، كما وظّف الرمزية التاريخية في عبارة "قرامطة" وهو وصف سلبي حاول أن يشبه به من باعوا ضميرهم للمستعمر فشبههم بالقرامطة الذين سرقوا الحجر الأسود من الكعبة وحرموا المسلمين من شعيرة الحج لسنوات والغرض من هذا التناص القرآني ليأتي ليمنح قيمة لفظية عظيمة[2]، وجاءت هذه المقتطفات الشعرية مباشرة في الطرح[3].

1 ينظر: عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الجزائرية، دار هومة، الجزائر، 2009، ص 456.
2 ينظر: نفسه، ص 463.
3 ينظر: نفسه، ص 464.

كما يلاحظ في هذه الأبيات الشعرية تحكم الشاعر بلغته الشعرية: "فاللغة التي يصنعها مفدي زكريا لا تنتمي إلى اللغة الشعرية التي نجدها لدى الشعراء الجزائريين من الجيل الجديد في عهد الاستقلال، حيث هذه اللغة غالبا ما تكون ضحلة فقيرة، وهزيلة وضعيفة معا، بل إن مفدي زكريا متحكم في لغته الشعرية يصطنعها كيف يشاء إلّا في مجازات قليلة هنا وهناك[1]

فمفدي زكريا حاول أن يطلع الرأي العام من خلال هذه الوقفات الشعرية إلى ما يجب أن تحارب إلى جانب مجابهة الاستعمار الفرنسي فكان يوجه رسائل صريحة في مواقف مختلفة يعبر فيها عن سخطه ممن سماهم "بائعو الضمير"، والذين ساهموا بشكل مباشر وغير مباشر في تأخير الاستقلال، وجعل عملية التفوق على العدد صعبة وبناءً على هذا كان من الضروري أن تكون عباراته جهورية وشديدة الوقع على الأسماع والقلوب، فغرضه واضح وهو تحريض الشعب وبعث الوعي في أوساطه.

وإذا عدنا إلى هذه القصائد لنعرف المناسبات التي من أجلها دونت هذه القصائد، نجد أن الشاعر يوجه الخطاب إلى فئات مختلفة من الناس، وينتقد سلوكيات تصدر من أفراد تختلف توجهاتهم ويعالج على اثرها قضايا مختلفة كلها تتمثل – حسبه – واقعا يجب أن يتغير، وسلوكا يجب أن ينتهي فدفاعه عن اللغة والعربية، وتهوينه من شأن من يمتهنون السياسة، من أجل الكراسي والأسف على الواقع الذي جعل الشعب "صاحب الوطن" غريبا في دياره، واشمئزازه من المستشرقين وألاعيبهم على الساحة الثقافية، وإنكاره لما آل إليه وضع الشباب الجزائري من تبعية للمستعمر وثقافته في سلوكه وعاداته وتقاليده، وسخطه من المعاملة السيئة التي تنتهجها فرنسا تجاه المواطنين الجزائريين وتعاملها الظالم مع الشعب الجزائري، كلها قضايا تتمثل في نظر مفدي زكريا

1 ينظر: عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الجزائرية، دار هومة، الجزائر، 2009: ص 440

شيئا واحدا وتؤثر على حسب رأيه على ديمومة وكيان وهوية المواطن الجزائري، وتؤثر سلبا على ثورته التي يسعى من خلالها إلى الاستقلال.

فالشاعر مجدد فنيا وواقعيا، استطاع أن يطور الأدوات الفنية (فكانت موسيقاه معبرة لا تقتصر على الجانب الخارجي فقط بل تركز على الدلالة والتركيب)، وهو كذلك من المجددين في الشعر فقد جعله من حيث المضمون يعبر عن قضايا معاصرة بعيدا عن التقليد والاجترار، ومن حيث الأدوات الفنية فقد طورها وجدد فيها[1]

وكتوضيح لغرض الشاعر تقول: "وفي معيار القصيدة الثورية، يبدو أنه مبني على مجموعة من العلائق الدلالية والنظم التركيبية، والاستعانة بالرموز التي استقاها من واقعه المعيش، وأحداث التاريخ حيث تجعل نصه منفتحا يعمق فضاء الرؤيا فيه، حيث تتكون داخل هذه التجربة الشعرية وبنائها التركيبي سمة تكون على صلة بالواقع الحسي[2].

3-2 نقد الواقع الاجتماعي والسياسي عند إبراهيم طوقان:

من القصائد الشعرية التي كانت سببا في تضييق الخناق على الشاعر إبراهيم، وتعرضه لجملة من المخاطر، التي أدت في كثير من الأحيان إلى مصادرة أعماله الشعرية، تلك القصائد التي انتقد فيها واقعا سياسيا عفنا، وتطرق فيها إلى بعض مظاهر التقهقر الاجتماعي، فجاءت قصائده في نقد الواقع الاجتماعي والسياسي كرد فعل أدبي ساخر، تارة وناقم ومقاوم تارة أخرى، ومن بين هذه القصائد قصيدة بعنوان " يا سراة البلاد" جاء فيها:[3]

1. ينظر: طاهر فاطمة، خصائص الخطاب الشعري الجزائري لدى مفدي زكريا، مجلة اللغة العربية مج: 23 ع: 3 الجزائر، 2021. ص 329.
2. نفسه، ص 329.
3. ينظر: إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 23.

يا ســـرَاة البـــلاد يـــكفي البـلاد * ما أذاب القلـــوب والأكبـادا

انـتداب أحـــدّ من سفـرة السـيق * وأروى مـــن المـنايا زنـــادا

ما الـــذي تفعـــلون، الجـوّ مربـدّ * وهذي الأعداء تقضي المرادا

أحـــبـــــط الله سـعيكـم الحـــبّ * الذات قمتم تهيؤون العتـــادا

تندبون الأوطان في طلب المنصب * والديـــن والهـــدى والرشـــا

وطـــن بـائـــــس يبـاع وأنـتـــم * لا تزالون تخدعون العـبادا.

ويوجه إبراهيم طوقان خطابا لاذعا، شديد اللهجة إلى فئة من أبناء جلدته، غلظ فيها الوصف في حقهم، فخاطبهم بقصيدة عنوانها، إلى بائعي البلاد، فقال: [1]

باعوا البلاد إلى أعدائـهم طمعـا * بالمال لكنّها أوطانـــهم باعـوا

قد يعذرون لو أنّ الجوع أرغمـهم * والله ما عطشوا يوما ولا جاعوا

وسلفة العار عند الجـوع تلفظـها * نفس من قبـول العـار، ودّاع

يا بائع الأرض لم تحفل بـعاقـبة * ولا تعلمت أن الخصـم فـدّاع

لقد جنيت على الأحفاد وا لـــهفى * وهـــم عبيـد وخـدام وأتبـاع

وغـــرّك الذهـــب اللّمـاع تحـرزه * إنّ التراب كـــما تدربـه لمـّاع

فكر بموتك في أرضي نشأت بها * واترك لقبرك أرضًا طولها باع.

وفي نقد الواقع السياسي، الذي دأب عليه قادة بلده، بوجه خطابا صريحا إلى من كان يراهم ويعتقد أنهم السبب في تدهور بلده يقول في قصيدة عنوانها "يا رجال البلاد":[2]

وطنـــــي مبتلـى بعصـبة ودلّا * ليـــن لا يتّقـون فيـه الله

1. ينظر: إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص 23.

2 . المصدر نفسه، ص 187.

في ثيــاب تــريك عــزّا ولكــن * حشوها الذل والرياء سدّاها

ووجــوه صــفيقة ليــس تنــدى * بجلود مدبــوغة تغشــاها

حسبوا في رجال هل كانت الآن * عام إلّا لمثلــهم أشــباها

وفي قصيدة أخرى عنوانها "ورد بغيض وهجرة تتدفق":[1]

وطني أخاف عليك قوما أصبحوا * يتساءلون: من الزعيم الأليق؟

أين الصفوف تنشّقت فكأنّمـــــا * هي حائط دون الهوان وخندق

أين القلوب تآلفـــت فتدافعــت * تغشى اللهيب وكل قلب فيلق

أمّا الزعامة فالحـــوادث أمّــها * تعطى على قدر الفداء وترزق

يا ابن البلاد وأنت سيد أرضها * وسمائها إني عليــك المشفــق

أنظر لعينيك هل يسرك أنّـــه * ورد بغــيض وهجــرة تتدفــق

ويلوم الشاعر مصرحا بعبارات هجاء لاذعة لزعماء السياسة في زمنه، وفي قصيدة بعنوان "فلسطين مهد الشهداء" يقول في بعض أبياتها منتقدا الصحافة:[2]

تلك الصحافة كيميــا * ء لها بخلــق الله ســر

تدع الكرامة وهي هز * ل والمروءة وهي سخر

ثم يلتفت إلى أهل السياسة قائلا:[3]

منذ احتلال الغاصبـــــين * ونحن نبحث في السياسة

شان الضمير مع السياسة * كالرقيق مـــــع النخاســه

مرّت علينا ست عشـــــ * ــرة كنّ مجــلبة التــعاسة

1 . ينظر: إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 195/.196

2. المصدر نفسه، ص 206.

3 . نفسه ص :206.

...

تأتيك من بيـــع البــلاد * وما إلــيه مـن الخساســة

ويعود الشاعر، ومرة أخرى في مقطوعة موسيقية عنوانها "السماسرة"، ليعدى ويفضح بائعي الوطن – حسب زعمه–فيقول:[1]

أمّا سماسرة البلاد فعصبــة * عار على أهل البلاد بقاؤها

إبليس أعلن صاغرا إفلاسه * لا تحقّق عنـــده إغراؤهــا

يتنعمّون مكّرميـــن كأنّمــا * لنعيهم عمّ البــلاد شقــاؤها

وفي سياق آخر يوجه، وبالتعويض بحرف الجر "إلى"، دون ذكر الاسم، أو الإشارة بوصف يوجه نداءً محمّلا بعبارات الازدراء والإهانة، فيقول في قصيدته "إلى ثقيل":[2]

أنــت كالاحتــلال زهــوا وكبــرا * أنت كالانتداب عجبا وتيها

أنت كالهجــرة التــي فرضـــوها * ليس من حيلة لقومــك فيــها

أنت أنكى من بائع الأرض عندي * أنــت أعذاره التــي يدعّيــها

لــك وجــه كــأنــه ســـــمسا * ر على شرط أن يكون وجيها

وجبيــن مــثل الجــريــدة لمــّا * لم تجد كاتبــا عفيــفا نزيــها

وحديث فيــه ابتــذال احتــجــاج * كلـــما نمقــوه عــاد كريهــا

جمــعت فيــك عصبــة للبلايــا * وأرى كل أمــة تــشتــكيــها

إلّا أنه وبسخرية أدبية واضحة المقاصد، مفهومة الكلمات والمعاني يصف حال من يعتقدهم

1: إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 218

2 . نفسه، ص 224.

سماسرة البلاد، كما سبق بيانه يصفهم، ويصف حالهم في المجتمع الذي يعيشونه فيه فيقول:[1]

يا حسرتا، ماذا دهى أهل الحمى * فـالعيــش ذل والمصــير بــوار

أرأيت أي كرامـــــة كانــت لهــم * واليوم كيف إلى الإهانة صاروا

سهل الهوان على النفوس فلم يعد * للجرح من ألــم وخــفّ العــار

همدت عزائمهم فلو شبّـت لظــى * لتثيـــرها فــيهم فلــيس تثــار

الظالم الباغــي يســوس أمــورهم * واللّص والجـاسوس والسمســار

قبل الولوج في توضيح معاني هذه الأبيات، التي اخترناها كأنموذج للخطاب الذي ينتقد الواقع السياسي والاجتماعي عند الشاعر، وجب التذكير بأنّ الشاعر عُرف واشتهر بهذا النّوع من الشعر الوطني، والذي يعد من بين الخطابات السياسية التي ضيق عليه الخناق بسببها، ولا يلام الشاعر على ذلك، لأنه شهد من الأحداث السياسية ما يحرك القلوب ويستنهض النفوس، يقول الأستاذ يوسف عطا الطريفي: (شهد إبراهيم طوقان ما يجري في وطنه قلق، ولد عام 1906م، في وسط هذا المخاض الشديد لأحداث فلسطين وتفتحت عيونه على الأحداث الجارية.

وما ابتليت به فلسطين إبان كفاحها، من تهويد إلى تشريد الأهل وحكم المستعمر، وما قامت به الصهيونية التي وضعت ثقلها ومخططاتها لتحقيق أهدافها، وقد وصف إبراهيم طوقان في قصيدته المناهج ذلك:[2]

لنا خصمان ذو حول وطول * وآخر ذو احتيال واقتناص

وتواصوا بينهم قساتي وبالا * وإذلالا لنا ذاك التواصي)

1 . إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ص 236

2 . يوسف عطا الطريفي، إبراهيم طوقان حياته وشعره، الأهلية للنشر والتوزيع، الأردن، 2008، ص 80.

الملاحظ في هذين البيتين أن إبراهيم طوقان وفي حملته الشرسة ضد أعداء وطنه كان يصارع على جناحين:

الأول: من وصفه بأنه (ذو حول وطول)، ويقصد به الانتداب البريطاني الذي أظهر نيته في بيع البلاد، وتحطيم كيانها، واستقدام اليهود إلى أراضيها.

أمّا الثاني: فهم أهل فلسطين وبالخصوص من قال فيهم (ذو احتيال واقتناص)، ويقصد بهم من وجه لهم الخطاب الصريح الواضح في القصائد، أو المختارات الشعرية سالفة الذكر (الحكومة السياسة، السماسرة، الصحافة....)

وصراحة الشاعر الأدبية، ووضوحه الشعري جعل من هذه القضايا عناوين مباشرة، لا لبس فيها، فما أثبتناه من أشعار يخص هذا الجانب عن تيمة الوطن، جاء متجها بعبارات مفهومه، يعيها العام والخاص، فقد جاءت العناوين على النحو الآتي: "سراة البلاد"، "إلى بائعي البلاد"، "يا رجال البلاد"، "السماسرة"، "إلى ثقيل"، "، "فلسطين مهد الشهداء" والملاحظ في هذه العناوين أنها كافية للتعبير عن الواقع المر الذي كان يراه الشاعر في وطنه، ولا أدل على ذلك من استعماله لأسلوب النداء، والذي يستعمل لأغراض بلاغية كثيرة، ويتحلى هنا في دلالتها على الردع والزجر والتأنيب من جهة، والتنبيه على الخطأ وتعظيم جرحه من جهة أخرى.

وهو غرض شعري قديم يقصد به كذلك انحطاط مكانة المنادى، واستنكار فعله، وهذا ما يناسب العبارات التي ارتضى الشاعر أن تكون عناوين لقصائد ف (بائع ثقيل، سماسرة) كلها عبارات لا تناسب إلّا فئة من المجتمع تميز بخصال ذميمة.

وقد ضمن هذه القصائد معجما لغويا مليئا بالعبارات الدّالة على الانتقاص والاحتقار لهؤلاء الناس، ومن ذلك: **عبيد، خدام، أتباع، الذل، الهوان، الرقيق، النخاسة، الذل والهوان، الرقيق، التعاسة ،السماسرة**، وهي من العبارات التي تعتبر تيمات صغرى، تحيل إلى موضوع النقد

الوطني، ونوّع من استعمال هذا النوع من العبارات فجاءت عباراته واضحة صريحة في نقد هؤلاء، وجاءت كلماته قاسية في حقهم، ومن ذلك: **ما أذاب القلوب، الأكباد، إني عليك المشفق، وطن بائس، تخدعون العباد بائعي البلاد، بائع الأرض، بلغة العار، غرك الذهب اللّماع، وجوه صفيقة، هل كانت الأنعام إلا لمثلهم أشباها، ورد بغيض وهجرة تتدفق، وعلى يديهم بيعها وشراؤها، جمعت فيك عصبة البلايا** وأسوء العبارات التي جاءت في حق هؤلاء ما جاء في حقهم حين قال: "**أحبط الله سعيكم**".

إذن الفكرة العامة لهذه الوصلات الشعرية واضحة وصريحة، جاء في محتواها السخط على واقع سياسي مقيت، قدرة الكاتب بلغة ساخرة تقوم على مبدأ المفارقة يقول الدكتور محمد حسن عبد الله: "...ولا أدري كيف لم تلفت انتباه القراء لشعر إبراهيم، وأرجح أنه كان بسبيل إنقاذ فكرة، وهي أن يلتزم بهذا التصور، وأن يبدع فيه ديوانا، تقوم قصائده على المفارقة الساخرة...".[1]

ويقول: "ومن الطريف حقا أن الباحث النشيط (الذي أفدنا من جهده مرارًا) المتوكل طه، في بحثه لرسالة الماجيستر بعنوان (إبراهيم طوقان – دراسة في شعره)، وقد أعاد نشره، (طبعة ثانية معدلة ومنقحة بعنوان "الساخر والجسد") ربط بين السخرية والمفارقة...."[2]، وكتوضيح لمعنى المفارقة تقول الدكتورة نبيلة إبراهيم: "...فالمفارقة تعبير لغوي، يرتكز أساسا على تحقيق العلاقة الذهنية بين الألفاظ أكثر مما يعتمد على العلاقة النغمية أو التشكيلية، وهب لا تنبع من تأملات راسخة ومستقرة داخل الذات فتكون بذلك ذات طابع غنائي أو عاطفي، ولكنها تصدر أساسا عن ذهن متوقد ووعي شديد للذات وما حولها[3]..."

1. محمد حسن عبد الله، إبراهيم طوقان حياته ودراسة فنية في شعره، مؤسسة جائزة عبد العزيز، السعودية، 2002، ص 79.

2 . المرجع نفسه، ص 80.

3 . نبيلة إبراهيم، المفارقة، مجلة فصول، العدد 3و4، المكتبة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1987، ص 171.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره من خصائص ميزت أشعار الكاتب في هذه المقاطع الشعرية فإن لغة الشاعر وكما هو معروف عليه تميزت بالبساطة والوضوح، فليس هناك تعقيد في الأفكار ولا غوص في العبارات والكلمات، وهذا لا يتأتى إلّا لمن كانت عاطفته صادقة، كيف لا والقضية قضية وطن، يعد الشاعر جزءًا منها وقد حرم من البقاء فيه، وقد أسهب الشاعر في وصف الزعماء البائعين لهذا الوطن، ورد على تخاذل السياسيين المستمر اتجاه قضايا أوطانهم، فوصفهم "بحب الذات تخدعون العباد طبعا بالمال، دلّالين، وجوه صفيقة..."[1]

كما اعتمد أسلوب العتاب واللّوم، واستدعى كلماته وعباراته، وجعل من القرآن الكريم – وكعادته–ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم متكأه في توبيخهم، واعتمد على نهجه في تخويفهم، ومن ذلك قوله: "**يوم لا ينفع العيون تراها، واترك لقبرك أرضا طولها باع**"، إضافة إلى كل ما ذكرنا، فإنّ رمزية إبراهيم حاضرة في كل محافله الشعرية، وهي تتأرجح بين الرمزية الرئيسية سالفة الذكر، وبين الرمزية الطبيعية المستمدة من انتماء الشاعر والمنبثقة من حنينه، فحديثه المستمر عن الأرض والتراب والذهب...

إذن فطوقان شاعر الإخلاص للوطن، دون منازع، اعتمد على لغته في تغيير واقعه وانتقاده وانطلق من واقعه السيء ومن أوضاع بلده ليبوح عن خواطره ويعبر عن مشاعره، لهذا لقب بشاعر السخرية الفارقة بامتياز، واستطاع أن يجعل من رسائله المتناثرة وعيا وطنيا وقوميا، لازال الفرد في الوطن العربي عمومًا، وفي فلسطين خصوصا يتغنى به كلما سنحت له الفرصة لذلك.

1 . ينظر: عمر فروخ، شاعران معاصران، إبراهيم طوقان وأبو قاسم الشابي، المكتبة العلمية، بيروت، 1945، ص 105–113.

3-3 نقد الواقع الاجتماعي والسياسي بين الشاعرين (مقارنة):

بناءً على ما تم ذكره سابقا، حول نقد الواقع الاجتماعي والسياسي لدى الشاعرين، اتضح لنا من خلال تحليلنا لنماذج مختلفة من الأعمال الشعرية للشاعرين أن الموضوع لقي اهتماما بالغا لدى كليهما، وكان ضمن أولويات النتائج الأدبي عند كل واحد منهما، والدافع على النظم في هذا الميدان نفسه عند إبراهيم ومفدي على حد سواء، فالحرمان والمعاناة والظلم هو السبب الذي دفع كليهما إلى الكتابة في هذا النوع من الشعر الوطني.

يلاحظ أنّ الإنتاج الشعري عند إبراهيم طوقان كان تحت الظروف نفسها التي حملت مفدي زكريا على البوح بما يلوج في خاطره من معاناة وألم كان سببها تردي الوضع الاجتماعي والسياسي لبلده، والسبب الذي جعل قصائدهما تلج في هذا النوع من الإبداع هو السيّاسة الاستعمارية التي كانت تنوع في أساليب العقاب، وتتفنن في إذلال الشعوب المستعمرة.

فكان الجانب العسكري حاضرا وبقوة في كل المواقف التي تستدعي ذلك، وكان لسياسة التجهيل والتفريق والإذلال المعنوي حضور واسع في سياسة فرنسا مع الشعب الجزائري، وسياسة بريطانيا مع الشعب الفلسطيني، ومع كل المستعمرات آنذاك، فاضطر الشاعران إلى مواجهة هذا الظلم ومجابهته باللغة المناسبة، والسلاح المماثل، فاتخذا من الخطاب الشعري بوابة للولوج إلى عقول الخاصة والعامة على حد سواء، تارة بأسلوب التحذير، وتارة بأسلوب التهديد والوعيد، وتارة باستعمال السخرية والاحتقار.

وبما أن لكلا الشاعرين نزعة دينية، مستمدة من القرآن الكريم، فإنّ طبيعة الانتقاد وذم المظاهر السلبية في المجتمع لم يشمل الجانب السياسي فحسب، بل كان مستوى الخطاب يركز

على معظم الظواهر السلبية الموجودة في المجتمع، فمحاربة الخيانة والتصدي لأرباب السياسة وأصحاب النفوذ وإنكار التقليد الأعمى لدى الشباب للمجتمعات الغربية، والدفاع عن اللغة العربية...كلها أصول مستمدة من الثقافة الدينية لدى كل من طوقان ومفدي، ومستلهمة من الوعي الحضاري والثقافي الذي يتمتع به الشاعران، فالمدارس والكتاتيب التي تخرج منها مفدي زكريا هي نفسها المدارس والكتاتيب التي تخرج منها طوقان، والاختلاف في المسميات فقط.

وممّا لمسناه في الخطاب الأدبي لدى الشاعرين أن هناك تشابها كبيرا فيما يخص الفئات التي وجه لها الخطاب، بل إنّ التشابه كان حتى في المسميات التي أطلق على هؤلاء كلفظة "**السماسرة بائعي البلاد، أصحاب الكراسي، الخونة**"، وهي المصطلحات نفسها التي رصدناها عند الشاعرين.

إلى جانب كل هذا، كان للتناص القرآني حضور كبير عند الشاعرين، إلّا أنّ مفدي زكريا تفوق في هذا المجال، فما أوردناه من مختارات شعرية تم انتقاؤها من دواوين الشاعرين تؤكد ذلك، فتفوق مفدي زكريا في هذا الفن الأدبي واضح وجلي "جهنم الأرذلين، غرابيب سود، النعيق، الضلالا غربانها السود، أصنام..."، كلها عبارات تكررت جاءت تشبيها لخائني الوطن وردا على مكرهم و خداعهم، بل إن مجابهة مفدي لوقاحة هؤلاء لم يكن على مستوى اللفظ المفرد، بل جاء كذلك على مستوى الجملة مثل قوله: "طمس الحق أبصارهم، كنار جهنم ترجوا المزيدا...غرابيب السود"، وهي كلها عبارات مستمدة من القرآن الكريم، بينما كان نزوع إبراهيم طوقان إلى التناص القرآني محتشما، إلّا ما ورد في صيغة القسم في قوله: "والله ما عصوا"، أو في صيغة الدعاء عليهم "احبط الله سعيكم".

ومن بين أهم المميزات الفنية في قصائد إبراهيم السالفة الذكر، تركيزه على استخدام المعجم السياسي في عربه الأدبية مع خصومه، لفظا وعبارةً وعنوانًا، فما ورد في اختياره للعناوين على هذا النحو خير مثال على صحة ما نقول، فجاءت عناوينه كلها ذات طابع سياسي صريح، ومن ذلك "السماسرة، يا سراة البلاد، إلى بائعي البلاد، يا رجال البلاد"، بل إن تجليات اللفظ السياسي وتكاثره في قصائد إبراهيم لأمر واضح، فاستعماله الصريح للقاموس السياسي بات معروفا في معظم القصائد التي مرت علينا مثل "المنصب، انتداب، عبيد، وطني، السياسة، حقوقنا، الجاسوس)، بينما لم يتم التركيز على مثل هكذا عبارات في قصائد مفدي زكريا التي اخترناه إلّا نادرا.

ومن القضايا التي يجب أن تستثار، في هذا المقام، ما لمسناه من اعتماد مفدي زكريا في وصفه لخونة الأوطان على معجم مليء بأسماء الحيوانات، وهذا كان في مقام التشبيه، وغرضه الازدراء والإهانة في الوصف، فكانت "ابن آوى، الزرافة، قنافيد، أوصافا صريحة يراها الشاعر مناسبة لهؤلاء الخائنين، بينما لم نسجل هذا النوع من التشابيه إلّا في قصائد طوقان ما جاء في وصف المجمل في مثل قوله "كالأنعام".

وممّا لمسناه في هذا الموضوع "نقد الواقع الاجتماعي والسياسي" عند الشاعرين تفوق الشاعر إبراهيم طوقان على مفدي زكريا في هذا المجال، فما تم احصاؤه من مختارات شعرية من ديوان إبراهيم طوقان والذي جاء عدد صفحاته في حدود 300 صفحة، تجاوز ما تم جمعه من الإلياذة واللهيب المقدس والتي تعدى عدد صفحات الكتابية معا 420 صفحة.

ولسنا ندعي في هذا الصدد الدقة في هذا الباب، بل إن ما جمعناه من قصائد في هذا الموضوع عند إبراهيم طوقان، جاءت بعناوين واضحة وصريحة كان أكبر دليل على عناية الشاعر بهذا النوع من القصائد، بينما جاء هذا الفن كمقتطفات أو فصول شعرية، أرفقها مفدي زكريا في

ثنايا قصائده المتكاثرة، عالج من خلالها قضايا تتعلق بخيانة الوطن وانتقد ما يراه غير مناسب كسلوك سياسي أو اجتماعي في وطنه.

ومن بين أهم النقاط التي يجب أن تستثار في هذا الباب، تفرد إبراهيم طوقان في أسلوبه الأدبي في هذه القصائد، وفي غيرها بما ذكره الدكتور محمد حسن عبد الله حين قال من خصائص شعر إبراهيم طوقان "...وأن يبدع فيه ديوانا، قصائده تقوم على المفارقة الساخرة..."[1]، وقال في موضع آخر: "ومن الطريق حقا أن الباحث الذي أخذنا من جهده مرارا المتوكل طه، في بحثه لرسالة الماجيستر بعنوان "إبراهيم طوقان دراسة في شعره"، وقد أعاد نشره "طبعة ثانية معدلة ومنقحة بعنوان الساخر والجسد" ربط بين السخرية والمفارقة[2].

فيتأكد من خلال كلام الدكتور محمد حسن عبد الله، أنّ ما أسماه بالمفارقة الساخرة، ميزة خاصة انتهجها إبراهيم طوقان في نسج قصائده السياسية وبالخصوص تلك التي كان يحاول من خلالها انقاذ مجتمعه من وضع سياسي واجتماعي متعفن، بينما لم نلمس هذا النوع من الخصائص في قصائد مفدي زكريا، ولم يذكر النقاد نزوع الشاعر إلى مثل هكذا خصائص في نتاجه الشعري ولو حاولنا الغوص في تحليل هذه القصائد، من خلال استخراج الخصائص الفنية لأسلوب كل شاعر من هذه المختارات الشعرية، لطال البحث، ولكن نقتصر على مثال واحد يميز كل شاعر عن الآخر ألّا وهو أن الشاعر إبراهيم طوقان توفي سنة 1941، بينما عايش مفدي زكريا فترتي الاستعمار والاستقلال.

1 . ينظر: محمد حسن عبد الله، براهيم طوقان، حياته ودراسة فنية في شعره، مؤسسة جائزة عبد العزيز، السعودية، 2002، ص 79.

2. المرجع نفسه، ص 80.

ومن المؤكد أنّ إبراهيم طوقان لم يكن قد شهد عصر التجديد الذي كان انطلاقة على يد نازك الملائكة، ولكنه عاصر الثورات الأدبية التي سبقتها فأخذ منها حبّه للبساطة، وترك التكلف والصفة[1] وتجاوب معه في ضرورة الاقتراب بالشعر من النثر[2]، وجاءت أشعاره القومية كأنموذج للتجديد في الأغراض الشعرية[3]، بينما شهد مفدي زكريا عصر التجديد منذ بدايات الخمسينات وعاش لما يزيد عن عشرين سنة في عصر هذا التجديد، ولا شك أنه قد نهل من معنيها واستفاد من خصائصها رغم تشبثه ببعض خصائص القصيدة القديمة وتسحبه على منوالها.

4-التضحية من أجل الوطن بين مفدي زكريا وإبراهيم طوقان:

4-1 التضحية من أجل الوطن عند مفدي زكريا:

إذا كان شاعر الثورة الجزائرية قد أجاد في نظم القصائد التي تصف جمال البلاد، وتعبر عن صدق حبه لها، فقد أسهم الشاعر بشكل كبير جدا في بعث قصائد تحريضية تدعو إلى الثورة وبذل النفس من أجل الوطن، ويتجلى هذا الطرح في عدة قصائد من دواوينه المتكاثرة، وقد جاء في الإلياذة وحدها وفرة كبيرة من هذا الغرض الشعري، ومن ذلك قوله في الإلياذة:[4]

صنعت البطولات من صلب شعب * سخي الدماء فَرُعْتِ الدنا

وعبدْتِ درب النـــجاح لشعـــــبِ * ذبيح فلم ينصهر مثلــنا

1 ينظر: عمر فروخ: شاعران معاصران، إبراهيم طوقان، أبو القاسم الشابي، المكتبة العلمية، بيروت، 1945. ص 78.

2 نفسه، ص 78.

3 ينظر: محمد حسن عبد الله: إبراهيم طوقان، حياته دراسة فنية في شعره، مؤسسة جائزة الملك عبد العزيز بن سعود البابطين، السعودية، ص 86.

4 مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ص 22.

وجاء في الصفحة 36 من الإلياذة :[1]

إذا للكريهة نادى المنادي * وشرفت باسم الجزائر جنسي

إذا للكريهة نادى المنادي * بذلت حياتي وودعت أنسي

وممّا جاء في الصفحة 54 قوله:[2]

بلى...يا فرنسيس هذا الحمى * صنعنا سيادته بالدما

بلونا السنين الطوال جهــادًا * فباركنا معجزات السّماء

وقال في قصيدة أخرى :[3]

فكانوا البغاة فكنا المنايا * وكانوا البغاث فكنا الكواسر

إلّا أنه وفي وصفه لتضحيات أولاد سيدي الشيخ في مقاومتهم للاحتلال قال:[4]

بنو سيدي الشيخ قادوا النضالا * فهزوا الثرى وأذابوا الجبالا

إلى أن قال:[5]

ويستل من صــــدره روحـــــه * بيمناه يبكي عليــه الثكـــالى

ووهران تصـرخ فيــها الدماء * بساح الفدا تستــفز الرجــالا

وفي أشهر أبيات له:[6]

فأذن ربك ليلة القدر * وألقى الستار على ألف شهر

---

1 مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،، ص 36.

2 المصدر نفسه، ص 54.

3 المصدر نفسه، ص 56.

4 المصدر نفسه ص 58.

5 المصدر نفسه، ص 58.

6 المصدر نفسه، ص 69.

وقال له الشعب: أمرك ربـــي * وقال له الرب: أمـرك أمـري

ودان القصاص فرنسا العجوز * بما اجترمت من خداع ومكرٍ

ولعلع صوت الرصاص يدوي * تعاف اليراع خـرافـات حبـر

وألقى بمناسبة انتصار الثوار في الجنوب الجزائري سنة 1955 قصيدة جاء في بعض أبياتها:[1]

تبارك شعب تحدى الصعاب * فصام واضرب سبقا شدادا

وآنف أن يستـسيغ الحيـاة * تُجرّعُه ذلـه واضطـهادًا

وأقسم ألا يعيـش النـهار * عميـلا يوفر للبـوم زادًا

وأن يهجر النوم يلقى المنايا * ويبلو اللّيالي الطوال جِلادا

إلى أن قال:[2]

ومن دمه يرتوي ويُرَوي * سنابله ويفدي البلايا

إلّا أن التعبير عن فداء الوطن عند الشاعر قد أخذ النصيب الأوفر في ديوانه "اللهب المقدس" فبعد أن كان يرمي بأبيات متعددة وسط قصائد ذات أغراض مختلفة في الإلياذة، فقد خصص عناوين كثيرة لهذه الغاية في اللهيب المقدس، وأوغل في وصف مظاهر التضحية، وعدّد من ذكر تجليات التضحية عند المجاهدين، ومن يدعمهم في سبيل حرية الوطن من المواطنين فقد جاء في أبيات قصيدة بعنوان "الذبيح الصاعد"، والتي ألقاها بسجن بربروس ليلة 18 جوان 1956[3]

وامتطى مذبح البطولة مـع * راحا ووافى السماء يرجوا المزيدا

---

1 مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر،، ص 77.

2 المصدر نفسه، ص 77.

3 مفدي زكريا، اللهب المقدس، موفم للنشر الجزائر، 2007، ص 17.

...

صرخة ترجف العوالم منهـــا * ونداء مضى يهز الوجـــــودا

اشنقوني فلست أخشى حبالا * واصلبوني فلست أخشى حديدا

...

واقضي يا موت ما أنت قاض * أنا راض إن عاش سعي سعيدا

أمّا إن مـــت فالجـزائر تحيـا * حـــرة مسـتقـلة لـــــن تبيـدا

وهذه الأبيات التي مرت تعد من أشهر الأبيات التي جاءت بها قرحة الشاعر إبان ثورة التحرير والملاحظ أن الشاعر قد وفق لاختيار كلماتها فضمنها معاني التضحية بعبارات سنتكلم فيها لاحقا وجاء في قصيدة تحت عنوان "وتعطلت لغة الظلام":[1]

والشعب شق إلى الخلود طريقه * فوق الجماجم والخميس لهام

وأثارها حربًـــا لأجـل بقائـه * قربانـــها الأرواح والاتسـام

لا النار، لا التقتيل يثني عزمه * لا السجن لا التشكيل لا الإعدام

ولعل أبرز القصائد ما يردده الشعب الجزائري على لسان أطفاله في المدارس كل يوم ألا وهي قصيدة قسما، وقد جاء فيها:[2]

قسما بالنازلات الماحـقات * والدماء الزاكيـات الطاهرات

والبنود اللامعات الخافقات * في الجبال الشامخات الشاهقات

نحن ثرنا فحياة أو ممـات * وعقدنا العزم أن تحيـا الجـزائر

فاشهدوا....فاشهدوا.....فاشهدوا

1 مفدي زكريا، اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر 2007، ص 43.

2 المصدر نفسه ، ص 62.

وجاء في قصيدة "نشيد الشهداء":[1]

أعصفي يا رياح * واقصفي يا رعود

واثخني يا جراح * واحدقي يا قيــود

نحن قـوم أبــاة * ليس فيـنا جبــان

قد سئمنا الحياة * في الشقا والهوان

لا نمل الكفـاح * لا نمــل الجــهاد

في سبيل البلاد

أدخلونا السجون * جرعونا المــنـون

ليس فينا خؤون * ينثني أو يــهـون

اجلدوا...عذبوا...واشنقوا ....واصلبوا

واحرقوا.....واضربوا

نحن لا.....نرهب....!!

وفي نفس الكتاب وتحت عنوان "وتكلّم الرشاش جل جلالة" قال:[2]

أكباد من...؟ هذي التي تتفطـــر؟ *ودماء من...؟ هذي التي تتقطر؟

وقلوب من...؟ هذي التي أنفاسهـــا * فوق المذابح للسمـــــاء تتعطــر؟

ورؤوس من...؟ تلك التي ترقى إلى * حبل المشانـــق طلـقة تتبخــتر؟

...

غضب الجزائر ذاك...؟ أم أحرارها * ذكروا الجراح فأقسموا أن يثأروا

1 . مفدي زكريا، اللهب المقدس، ص 73.

2 نفسه : ص 115.

إذا تأملنا فيما سبق بيانه من مقاطع شعرية، تم احصاؤها كأنموذج لتعبير الشاعر عن تيمة "التضحية من أجل الوطن"، وهي من بين أهم أنواع التيمات التي تعبر عن صدق التعلق بالوطن من جهة، والتي تصب في قالب "التيمة الكبرى" والمتمثلة في "الوطن" كمصطلح يعبر عن التيمة الكبرى التي هي موضوع بحثنا فإن تعبير الشاعر عن هذا الموضوع كان مستفيضا، ألهم فيه الشاعر على مستوى الحرف، وعلى مستوى الكلمة، وعلى مستوى العبارات، فجاءت إبداعاته الشعرية في التعبير عن "التضحية" مستفيضة.

وقد عبر الشاعر عن قوة شعبه في التضحية، فجاءت عباراته قوية، قوة عزيمة الفرد الجزائري الرافض للاستعمار الذي طال مكوثه على أرض الجزائر، فوظّف مفدي مصطلحات تحمل دلالات عميقة لرجل يريد أن يرهب خصمه فيثير فيه الشكوك، ويشعره بالارتباك والخوف الشديدين، ومن ذلك ما رصدناه في الأبيات السابقة مثل عبارات: **الدماء، الذبيح، الكريهة، الجهاد، الثائرون الرصاص المغاوير، المنايا، النزالا، الرماح، نيران دالعة، الرصاص، الواقعة، المنون، مذبح، صرخة، يهز الجماجم، الصواعق، الحوارق، قربانها، الأرواح، النار، جراح، صارخات،** وهي مصطلحات تناسب وبشدة مقام التضحية، ومن الملاحظ في هذه المصطلحات أن معظمها مستمد من ثقافة الشاعر الدينية، المنبثقة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

وتم على مستوى المقاطع السابقة تكرار بعضها واستعمالها بصيغ مختلفة (أسماء، أفعال) تأكيدا منه على أهميتها وتعبيرا منه عن جانبين نفسيين مهمين جدا، الأول هو جانب الوعي الأدبي الذي يدفعه إلى التعبير الصريح عن رغبته في نيل الحرية رفقة أبناء وطنه، لينتقل دون سابق إنذار ليوجه رسائل شديدة اللهجة على مستوى الجمل، ليشعر المخاطب – وإن كان غائبا – عن مجلسه أنّ لهذه التضحية أهلها، فيستعمل من الجمل، وينتقي من العبارات أشدّها وقعا على الأسماع، من ذلك جاء في القصائد السالفة الذكر قوله: **لا تخشى الرزايا، تكلم الرشاش ، أذابوا الجبال،**

يهيل الرمالا، لعلع صوت الرصاص، ، واثق أن يستسيغ الحياة، ومن دمه يرتوي ويروي، أشنقوني فلست أخشى حبالا، واقضي يا موت ما أنت قاضٍ، أرواحنا تصنع مجدا، الدماء الزاكيات، اتخذنا رنة البارود وزنا، عزفنا نغمة الرشاش...

فهذا بعض من العبارات التي هي قليل من كثير، نشرت في دواوين الشاعر وسُطِرَت بقلمه الثوري الذي يستنهض به نفوس المخذلين والخائفين من جهة، ويعاتب به الرافضين لفكرة التضحية من جهة أخرى، ويواجه مستعملا ضمير النداء الصريح "يا" يواجه به المستعمر الظالم، وكل هذه المواقف الصريحة والضمنية تجعل من قصائد الشاعر أنموذجا ثوريا يحتذى به، وينسج على منواله كيف لا وهو شاعر الثورة بامتياز.

ومثل هذه العبارات جاءت متكاثرة في قصائده على نحو ما يسمى بالتكرار الحجاجي خاصة في الإلياذة ويقصد من هذا الفن ما ذكره الدكتور البشير سلطاني عن هذا الأسلوب الأدبي: (وفي هذا السياق نجد أن مفدي زكريا قد وظّف التكرار الحجاجي في الإلياذة بشكل مكثف في مدونة الشعرية المرسومة بإلياذة الجزائر، وعليه يطرح التساؤل التالي: إلى أي حد وفق الشاعر في توظيف التكرار كآلية حجاجية هدفها إقناع المتلقي بجزائر الجمال، وجزائر الجلال؟ ثم ما هي أشكال التكرار الذي عمد الشاعر إلى توظيفه في مدونته الشعرية؟[1]...

ثم يجيب الكاتب قائلا: " تتعدد الأهداف التي يسوغها الشاعر بنزوعه إلى التكرار، منها ما يهدف إلى تقوية النغم في النص الشعري، ومنها ما يستهدف تقوية المعاني الصورية الكلية، ومنها ما يستهدف تقوية المعاني التفصيلية"[2].

1 . البشير سلطاني، التكرار الحجاجي في إلياذة الجزائر، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 18، الجزائر، 2013، ص 34.

2. المرجع نفسه، ص 35.

ومن جماليات خطاب مفدي في الإلياذة، وفي غيرها تركيزه على عنصري (التعريف والتنكير) واللتان تلعبان دورا مهما في عمله الشعري، وهذا من خلال قيمتي الحضور والغياب، فهما يحملان قيمة دلالية ذات فعالية شعرية، وقد كان مفدي زكريا من خلال هذه المقطوعة على دراية تامة بفعالية هاته الثنائية..[1]

ويوظف الشاعر هذا البعد الجمالي فيما ذكرناه سابقا في معظم المقطوعات التي مرّت علينا من بينها استعماله في التعريف لعبارات البطولات الدماء، النجاح، الثائرون، الصراصر....أمّا التنكير فاستعمل فيه ثائر، جهادًان صحراؤنا، ساح الفدا.....، أمّا من الجانب الدلالي فإنّ الشاعر استعمل معجما شعريا حقل ألفاظه ديني[2] ويتجلى ذلك في استعماله المصطلحات المستمدة من القرآن الكريم ومن ذلك عبارات: **تأذن ربك ليلة القدر، الواقعة، الذبيح، الجهاد...**

4-2 التضحية من أجل الوطن عند إبراهيم طوقان:

إذا كان مفدي زكريا قد عاش ويلات الاستعمار الفرنسي، وتجرع مرارة الاحتلال والظلم والقهر فاضطر لإظهار ما قام به الشعب من تضحيات في سبيل الوطن، فإنّ إبراهيم طوقان وإن تغرّب عن مسقط رأسه في نابلس، وعاش معظم فترات حياته غريبا عن دياره، فإنه شعر مثلما يشعر أي مواطن فلسطيني بالظلم والقهر والعدوان تحت وصاية الاحتلال البريطاني، كيف لا، وقد كانت عائلته تعيش المأساة وتنقل إليه الأحداث.

إضافة لكون الشاعر صحفيا قد عايش كل الأحداث عن كثب، وهذا ما جعله على اتصال مباشر بما يدور في بلده من أحداث مؤلمة من الجانب البريطاني، الذي ضيق على الشعب

1. ينظر: بن حمده محمد الصالح، جماليات الأسلوب في الخطاب الشعري عند مفدي زكريا قراءة أسلوبية، مجلة أدبيات، العدد 04، الجزائر، تاريخ النشر 2022/09/20، ص 61

2 . ينظر: بن حمده محمد الصالح، جماليات الأسلوب في الخطاب الشعري عند مفدي زكري، ص 62.

الفلسطيني وسلب حقوقه، ومن جهة مواقف أهله وأبناء بلده الرافضة لمختلف مظاهر الظلم والقهر والعدوان، وقد عبر الشاعر في مواضع عديدة من ديوانه عن هذا الموقف الرافض للاحتلال وكتب عن تضحيات الشعب الفلسطيني، وعبر عن هذه التضحيات في مناسبات كثيرة منها ما جاء في قصيدة له بعنوان "ذكرى حمية الشاعر" قال فيها:[1]

في سبيل الأوطان سالت دماه * ذي المعالي فليعلون من تعالى

فسلام عليـــه يـــوم دعـــاه * وطن مرهق فصـــال وجـــالا

أما قصيدته المشهورة الفدائي التي كتبها بعد تعيين الحكومة البريطانية المنتدبة يهوديا بريطاني الجنسية نائبا عاما على فلسطين فقال في بعض أبياتها:[2]

بين جنبيـــه خافــق * يتلضـــى بغايتــه

من رأى فحمة الدجى * أضرمت من شرارته

حمّــلتـــــه جهــنّم * طــرفا من رسالتــه

قل لمن عاب صمته * خلق الحزم أبكــما

وقال في قصيدة بعنوان "الساعات الثلاث":[3]

أثرَ السّيوف المشْرَفيّـَ * ةِ والرمـــاحِ الـزاغبيَّـــة

أودعتُ في مُهجِ الشبيــ * بةِ نفْحـــةَ الـرّوح الوفيَـــّة

سماً بروح (فؤاد) تــصــ * عــدُ من جوانحـــهِ زكـــية

ما نال مرتــبةَ الخـــلودِ * بغيــرْ تضحـــيةٍ رضـــية

1 إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، المؤسسة العربية للنشر، ص 16.

2المصدر نفسه، ص 127

3 . نفسه ص 128

...

أنـــــا ساعـــةُ المـوت * المشرّفِ كلَّ ذي فعلٍ مجيدِ

...

بطَلي أشدّ على لقـــــا * ءِ الموتِ من صُمِّ الصّخورِ

يَلْقى الإله مُخَضَّبَ ال * كفَّيــْن في يـــومِ النّشـــورِ

...

قسماً بروحك يا عطا * ء وجنَـّةِ الـــمـــلِكِ القديــرِ

...

أجسادهُم في تربة الأَوطانِ * أرواحُهُم في جنَّةِ الرّضْوانِ

...

وقال في ذكرى وفاة الشهيد الشريف حسين:[1]

أطلقي ذاكَ العيارا * قَذْكِ ضيماً واصطبارا

يطلبُ العزُّ ابتدارا * يدرك المجد اقْتِسارا

أطلقي ذاك العيارا

أطلقي ذاك العيارا

فهذه الأبيات، وإن كانت رثائية في حق الزعيم "الشريف حسن" فقد أظهر فيها الشاعر وصفا للرجل المضحي الذي يتحلى بصفات قلّما يتصف بها رجل – فضلا عن جندي من الجنود–وعلى

1 . ينظر: إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، المؤسسة العربية للنش، ص: 197، 198

نفس المنوال، وفي وصفه لصفات الشهيد، –طبعا–يقصد بالشهيد كل مقاوم ومثابر ومصارع سقط في ساحة المعركة، بعد أن أبدى بسالة في استماتة في القتال، جاء في بعض أبيات تلك القصيدة:[1]

عبس الخطبُ فابتسمْ * وطغى الهولُ فاقتحمْ

رابط الجأش والنهـى * ثابتُ القلبِ والقـدمْ

لم يُبالِ الأَذى ولــم * يَثْنِهِ طارئُ الألَـــمْ

نفسهُ طَــوْعُ هِمَّـــةٍ * وَجَمَتْ دونَها الهممْ

تلتقي في مزاجِـــها * بالأعاصير والُحممْ

تجمعُ الهائجَ الخِضَم * إلى الراسخِ الأَشَمْ

...

سارَ في منهج العلى * يطرُقُ الخلدَ منزلا

لا يبالي مكبَّـــــلا * نـــالَهُ أمْ مُجـدَّلا

فهو رهْنٌ بما عزمْ

إذا كان للشاعر مفدي زكريا خطوة في الشعر التحرري ويد طولي في نظمه، وخاصة ما يخص التضحية بالوطن، فإنّ إبراهيم طوقان قد أبدع في ديوانه في هذا المجال فجاءت هذه المقطوعات الشعرية كردات فعل في مناسبات مختلفة على الأوضاع السياسية المتعفنة في زمن الانتداب البريطاني على بلده فلسطين، وحتى ولو كانت القصائد التي أنشدها إبراهيم وجمعت في أعماله الشعرية معظمها غزلية، وتعبر عن أغراض أخرى، فإنّ القصائد التي اخترنا منها هذه النماذج تدل على اهتمام الشاعر بالشعر الوطني، وابداعه فيه.

1 إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، ، ص 201.

ويتجلى هذا الابداع في عدة خصائص بعضها تخص موضوع بحثنا، وبعضها الآخر تجليات لجوانب فنية أخرى، ومن بين أهم ما ميز هذه القصائد عناية الشاعر بالجانب اللّغوي وتركيزه على الغرض الأساس من إبداعه، ألّا وهو عدم التكلف والاستعمال الواضح من الألفاظ واستعمال قاموس لغوي بسيط يتناسب مع كل فئات القارئين، فغرض إبراهيم من هذه القصائد هو إيصال رسالة الكفاح وتحريض الشعوب على التضحية والجهاد في سبيل الأوطان، إلّا أنه تميز شأنه شأن مفدي زكريا باستعماله لمعجم لغوي ثري بالألفاظ والعبارات الدالة على التضحية والمشجعة على بذل النفس في سبيل الوطن، جاءت هذه العبارات كتيمات صغرى لتتظافر وتصنع تيمات كبرى تتجلى في الشعر الوطني عمومًا.

وممّا ورد من عبارات تخص المعجم الثوري والتضحية من أجل الوطن خصوصا: **دماه، تضحية النفس، الموت، شواظ الحرب، شرر، لظى، السيف، شرارة، أضرمت، جهنم، عواصف والحزم السيوف المشرفية، الرماح الزاغبية، تضحية رضية، الصخور، جنة الوطن المفدى الهيجاء القتال زناد، المنايا، الأعاصير، الحمم، الكفن....** والناظر في هذه العبارات يتضح له بأنّ الشاعر يميل إلى استعمال الرمز بأنواعه المختلفة فهو يوظف:

- **الرمزية الدينية:** لظى، أضرمت، جهنم...
- **الرمزية الطبيعية:** الحمم، الأعاصير....

وغرض الشاعر من هذه الرمزية واضح وجلي، ألّا وهو إيصال أفكاره ومشاعره بشكل غير مباشر، وإثارة مشاعر القراء وتأثيرهم، وهذا التنويع في استعمال الرمز يضفي على شعره غنى ودلالة عميقة.

كما استعمل الشاعر عبارات تمت بصلة كبيرة لتيمة الوطن وتعبر عن ضرورة التضحية بالنفس من أجل الوطن، ومنها اخترنا في هذه القصائد لفظ :**النار والدّما، الروح الوفيّة، تصعد من**

جوانحه زكيّة، مرتبة الخلود، الموت المشرف، أرواحهم في جنّة الرضوان، متعلق بدمائه متوثب اركبي الهول سبيلا، أطلقي ذاك الغبار، وطغى الهول فاقتحم، عاش يا نفس بحبك من كان بخيلا، وهي كلا عبارات تلفت الانتباه وتشحذ الهمم وتوقظ العزائم، تدعو إلى النضال، فالشاعر ومن خلال هذه العبارات تحوّل إلى أداة ثورية تحرض أبناء الوطن على النضال والكفاح، من أجل تحرير وطنهم واستعادة حريتهم وكرامتهم.

وها هنا وقفة لا بد منها أوردها الباحث محمد حسن عبد الله حيث قال: (وسنعقد لفن الرثاء عند إبراهيم فقرة خاصة، إذ تتميز مراثيه بأنها تتشكل من نسيج يتوازى فيه معنى الأسى والفقيد، أو الإشادة بصالح أعماله بالاتجاه نحو البطن وأبنائه للحث والنصح....واللوم أحيانا، وما يعنينا في هذا السياق أن رصد انعكاس حادث الفقد برحيل المتوفي على مجريات الراهن الوطني لن يأخذ صيغة الإشادة أو التفاخر، إذ يصعب شق طريق المعنى إلى الإشادة والتفاخر، وإنّما هو عادة ودائما التأسي بالفعل الصالح، أو توجيه اللوم إلى المقصرين في حق الوطن، بل إنه يستدعي روح الراحل – خاصة حين يكون شهيدا – ليلوم من خلالها الذين قعدوا عن أداء الواجب الوطني أو انحرفوا برسالة الجهاد[1]).

وفي سياق متصل بالموضوع، وفي قصيدته الموسومة ب "الساعات الثلاث" والمقصود بها الساعات الثلاث قبل الإعدام، والتي ذكرنا بعض أبياتها في هذا العنوان يقول الأستاذ محمد حسن عبد الله:(إنّ الثلاثاء الحمراء أول قصيدة تخضع لتصميم مسبق، وهي مع قصيدة مصرع بلبل تبلغ

1 محمد حسن عبد الله: إبراهيم طوقان، حياته دراسة فنية في شعره، مؤسسة جائزة الملك عبد العزيز بن سعود البابطين، السعودية، 2002، ص 74.

أعلى مستوى تشكيلي استطاع أن يحققه الشاعر في شعره، من ناحية المحتوى وهي وصف بطولي لمشهد الإعدام في ساعاته الثلاث، وهو ما يشير من مشاعر الغضب والتوعد والتنديد..."[1]

ممّا يلاحظ على قصائده التي ذكرنا، توظيفه لرصيده التاريخي والذي يعد ثقافة الشاعر الأخرى إلى جانب مواهبه الشعرية الأخرى مثل استشهاده بمواقف صلاح الدين الأيوبي في قصيدة "موسى النبي موسى" وهو من أهم خصائص شعره التي أوردها الدكتور عمر فروخ) والذي يعد من أصدقاء الشاعر والمقربين منه)، في كتابه "شاعران معاصران، إبراهيم طوقان وأبو القاسم الشابي"[2]

ومن الجوانب النفسية التي تضاف إلى خصائص القصائد السابقة، فمعظم قصائده الشعرية ذات عناية فائقة بالجانب الموسيقي والشعري، وشغفه الكبير بالخطاب الحماسي، ويتجلى هذا في عاطفته[3]، المتوجهة والجياشة التي يوظفها في عبارات رنانة وخطابات مؤثرة تستنهض الهمم وتدعو إلى التحرر من الظلم والقهر والعدوان.

4-3 التضحية من أجل الوطن بين مفدي زكريا وإبراهيم طوقان (مقارنة):

إذا كانت التضحية من أجل الوطن همة الشعوب المستضعفة، وسبيل النفوس المضطهدة في كل شبر من العالم الفسيح، فإن تعبير الشاعر عن هذا المقام السامي في قصائده يعد تضحية من نوع آخر، كيف لا والشاعر يبذل قصارى جهده لتمثيل تلك الوقائع القاسية، ويسعى لإخراجها في صورة فنية تثبت من جهة مدى شرف وعلو منزلة المضحي بنفسه، وخلوده الأبدي بسبب هذه

1 محمد حسن عبد الله: إبراهيم طوقان، حياته دراسة فنية في شعره، مؤسسة جائزة الملك عبد العزيز بن سعود البابطين، السعودية، 2002، ص 103.

2 ينظر: عمر فروخ: شاعران معاصران، إبراهيم طوقان، أبو القاسم الشابي، المكتبة العلمية، بيروت، 1945 ص 74.

3 ينظر: المرجع نفسه، ص 80.

التضحية، ومن جهة أخرى تفضح وتعري من كان سببا ودافعا لهذا الرجل حتى هانت عليه نفسه فجاد بها في سبيل الحرية.

والملاحظ في قصائد الشاعرين التي نظمت في هذا النوع من الشعر، أنها جاءت **مناسباتية** في الغالب، تساير الأحداث، وتتفاعل مع الوقائع، بحيث تجعل من الشاعر في حالة انطوائية، يتألم فيها على ما جرى في تلك الوقائع، ويخرج ذاك الألم عن طريق ثورته الأدبية ثائرا على المستعمر الظالم وممجدا لخصال الشهيد، فقصائد الشاعرين التي عرضاها في هذا المبحث، جاءت معظمها ردا آنيا على وقائع دامية، أو افتخارا بتضحية بطل من أبطال بلاده.

وإذا كان الشعر الوطني هو القالب العام الذي صيغت فيه هذه القصائد، فإن شعار القومية العربية، والتحرر من الحركات الاستعمارية التي كانت تبث سمومها في أوساط الشعوب العربية هو شعار تلك القصائد، لدى كل من مفدي زكريا وإبراهيم طوقان، فما هو احتلال على أرض الجزائر هو نفسه ما يحدث على يد الانتداب البريطاني في فلسطين، وفي غيرهما من البلدان العربية، فإذا كانت الوسائل هي نفسها فإن الغايات كذلك هي نفسها.

و عليه، فإن أول أوجه التشابه بين الشاعرين هو المحتوى الذي قدم بخصوص التضحية من أجل الوطن، والذي يعد من بين التيمات الصغرى المتعلقة بتيمة الوطن الكبرى، ويتكئ كل من الشاعرين في صياغة هذا النوع من القصائد على رمزية دينية، تكاد تطغى على العمل الأدبي الفني لدى الشاعرين، ويتجلى هذا في استعمال المعجم الديني بكثرة، والنهل من ألفاظه، ومن ذلك ما تم إحصاؤه في قصائد مفدي زكريا مثل : (**الجهاد، الثأر، تأذن ربك ليلة قدر، الدماء الزكيات، الواقعة)** ومثله ما جاء في قصائد إبراهيم طوقان (**لظى، جهنم، الكفن، أرواحهم في جنة**

الرضوان، شواظ) فهذه العبارات السالفة الذكر وغيرها كلها جاءت كإحالات مرجعية لعبارات جاءت في القرآن الكريم صريحة، أو تم اقتباسها من وقائع وأحداث مشابهة في القرآن الكريم.

كما عرفت قصائد الشاعرين التي تم انتقاؤها بالبساطة في العبارات، والوضوح في نسج المعاني، وذلك أن الغرض الذي جاءت من أجله هذه القصائد يستلزم هذا النوع من الخطاب فالمقام لا يتناسب مع الألفاظ الصعبة والعبارات المعقدة، بل إن اختيار الألفاظ جاء من **معجم دموي** لا يحيل إلا إلى معنى واحد ألا وهو التضحية وبذل النفس.

ومن بين الألفاظ التي تعبر بقوة عن التضحية ما جاء عن إبراهيم طوقان مثل: **(الدماء التضحية، الموت، شواظ الحرب، لظى، السيف، أضرمت، جهنم، عواصف الحزم ....)**، وفي سياق مشابه لهذه العبارات ما جاء عند مفدي زكريا مثل:**(الدماء، الموت، ذبيح، الكريهة الجهاد الرصاص المغاور، المنايا، النزال، الرماح، مذبح، الواقعة)**، وكلها عبارات تتشابه في المعنى وتنبثق من معجم لغوي واحد يخص التضحية من أجل الوطن، ويسعى لتبليغ رسائل صريحة وأخرى مشفرة تدعو إلى التضحية لنيل الحرية.

ومما لاحظناه في المختارات الشعرية السابقة، فخامة اللغة، وحسن اختيار الألفاظ، وهو ما يتناسب مع النزعة الخطابية التي يواجه بها الشاعرين القراء والمتتبعين لإنتاجهما الأدبي، فالعبارات الصاخبة والجمل المؤثرة هي التي تلقى استحسانا لدى السامع، وكلما كان الخطاب بلهجة مؤثرة كلما كان أشد وقعا لدى القارئ والسامع، وهذا من أهم سمات وخصائص الخطاب التحرري، لا سيما إذا تعلق الأمر بتوثيق أحداث تتعلق بالإعدام والتصفية الجسدية.

إلا أن ما ميز قصائد مفدي عن قصائد إبراهيم طوقان التي ذكرناها فيما يتعلق بالتضحية بالوطن هو الوفرة والكثرة، وهذا خلافا لإبراهيم طوقان، وهذا يرجع لأسباب عديدة من أهمها أن الاحتلال الفرنسي والذي يعد من بين أقسى أنواع الاحتلال في العالم، قد مارس من أشكال العذاب والتنكيل أكثر مما مارسه الانتداب البريطاني على مستعمراته، خاصة فيما يتعلق بالانتداب على أرض فلسطين الذي لم يدم إلا لعقدين من الزمن.

وفي سياق آخر لابد من توضيحه، وهو ما يتعلق بنوعية الخطاب الذي استعمله مفدي زكريا في قصائده، وهم ما يسمى بالنزعة **الخطابية المباشرة**[1]، في عرض الأفكار والأحداث، وهو الأسلوب المهيمن على القصائد السابقة، وفي معظم قصائد الشاعر، ويتجلى هذا في استعماله لأفعال الأمر **(اشنقوني، اجلدوا، عذبوا، اصلبوا، خذي منا الجواب)**، وكذا استعمال أدوات الاستفهام مثل قوله:**(وهل يخفض ابن الجزائر هاما)**، بينما عرف عن ابراهيم طوقان الميل إلى العموميات في نظم القصائد والبعد عن النبرة الخطابية الحضورية، ومن أهم ما ميز النماذج الشعرية سالفة الذكر عند إبراهيم طوقان ولوعه بالرمز التاريخي وتوظيفه في قصائده، مثل:**(حطين، صلاح الدين)**، وهذا يدل على افتخار وتغني الشاعر ببطولات الأجداد، وتذكير الشعوب بما كان لأجدادهم من سابقة فضل في التضحية من أجل الوطن، وهذا بالذات ما قام به صلاح الدين الأيوبي من جهود من أجل استرجاع بيت المقدس وتحريرها من أيدي الصليبيين.

وعموما، وعلى خلاف ما تم ذكره في نقد الواقع الاجتماعي، فإن مفدي زكريا تميز عن إبراهيم طوقان بتفوقه في كثرة نظم القصائد التي تحث على التضحية من أجل الوطن، وأبدع فيها وهذا ما ذكرناه سابقا في هذا المبحث والذي يعد من أهم أوجه الاختلاف بين الشاعرين.

1 ينظر: عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الجزائرية، دار هومة الجزائر ،.2008 ص 478

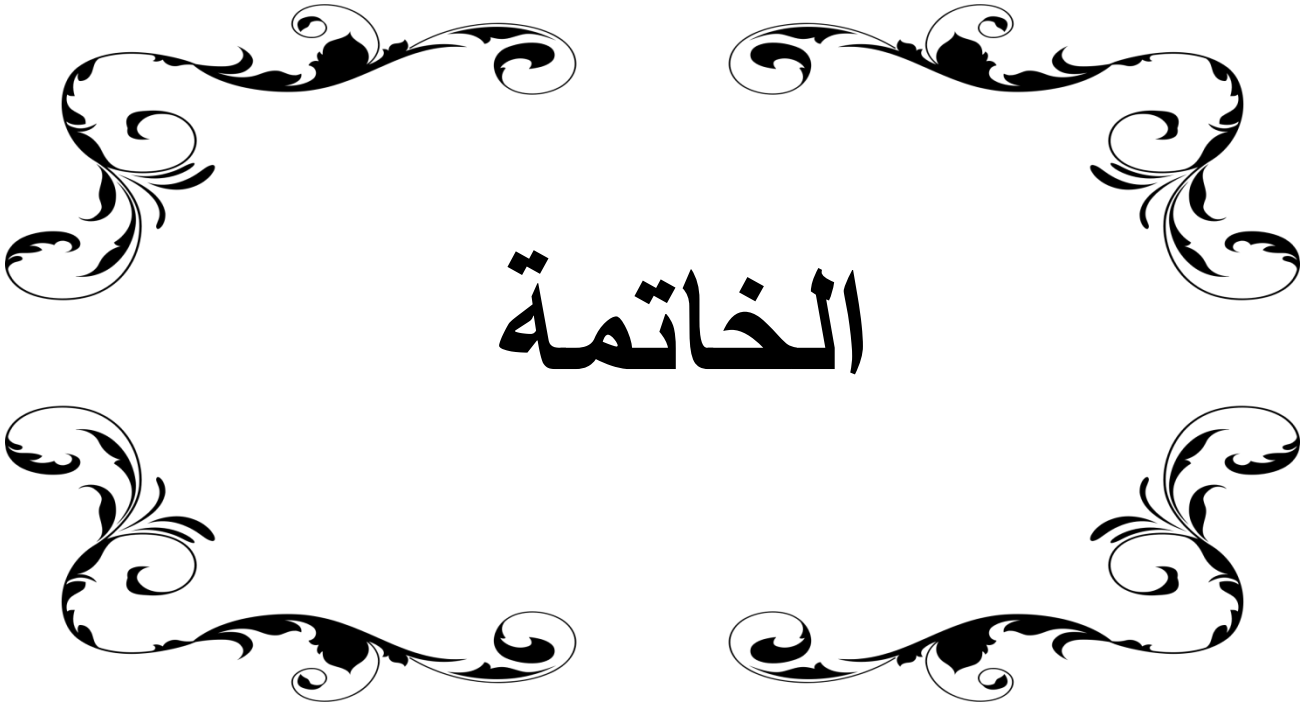

الخاتمة

في نهاية موضوعنا هذا، سنحاول باختصار الوقوف على أهم النتائج التي توصلنا إليها حول موضوع " تيمة الوطن بين مفدي زكريا وإبراهيم طوقان –نصوص مختارة–" فكانت النتائج كالآتي:

– أن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية هي الدافع وراء تحريك النص الشعري، بأن يفجر الشاعر مكنوناته حول الوطن والاعتزاز به بين جميع الأوطان.

– الوطن والهوية والانتماء حتمية لكل مخلص يصد كل عدوان داخلي في وقت تداعت علينا الأمم والتفتت إلينا أنظار الحاقدين.

– بات الذود عن الوطن والتغني به والتعبير عن حب الشعراء له، من أهم المواضيع التي أثرت الإبداع الشعري، الأمر الذي جعل مصطلح " الوطن " من أكثر المواضيع جذبا ودراسة وتقصيا كونها تداخلت مع الكثير من القضايا الأخرى كالهجرة، المنفى، الغربة، نقد الواقع الاجتماعي والسياسي الهوية، الانتماء.

– نتيجة لهذا التضارب والتداخل والكم الهائل في مفاهيم مصطلح " الوطن " بين الدارسين والنقاد وتجاوزا للمفهوم الضيق المختصر حول ربط الوطن بـ: (الوقوف على الأطلال) فقط في العصر القديم، وصولا للدراسات المعاصرة على أن " الوطن " قد تجاوز المفهوم القديم والضيق التي عجت به المعاجم اللغوية، والنصوص القديمة كذكر الحبيب والوقوف على الأطلال، والحنين لأول منزل ليصير مصطلحا له دلالات ومعاني أكثر اتساعا ليحمل فضاءات أخرى كـ:(حب الوطن، جمال الوطن، التضحية من أجل الوطن، الوطنية والهوية، الاعتزاز بالوطن).

– لما كانت التيمة الغالبة في العصر الجاهلي من ناحية أسلوب الحياة هي الترحال وحياة البدو نجد الشاعر الجاهلي مرتبط بحب الكثير من الأوطان، فكلما تنقل إلى وطن واستقر به الحال لمدة

من الزمن أصبح الحنين يشده إليه أكثر من الوطن السابق الذي مكث فيه، فلم تخرج مضامين شعرهم عن الشوق والوقوف على الأطلال وهدر الدموع على فراق الحبيب، ولعل أبرز الشعراء الذين خاضوا في ذلك: "امرؤ القيس و " عمرو بن كلثوم".

– أما في العصر الاسلامي والأموي، فالهجرة النبوية كانت دافعا قويا لظهور شعر الأوطان، وكان للصحابة رضوان الله عليهم يد في إطلاق العنان لسليقتهم حين يبلغهم الحنين إلى مكة المكرمة ولعل أبرزهم: "بلال الحبشي "، " ابن أم مكثوم" و" خبيب بن عدي"، و كذا " حسان بن ثابت" شوق وحنين ممزوج بوعد من الله تعالى بالرجوع إلى مكة فاتحين لها مع نبيه صلى الله عليه وسلم مستقرين فيها ما شاء الله تعالى، أما في العصر الأموي ، فيتجلى لنا " الوطن " من خلال شعراء ذاع صيتهم في ذلك الزمان، وارتبطت أسماؤهم بأوطانهم، فترنحت مضامينها تارة عن تيمة " البكاء " عند " الفرزدق " و" اليأس " عند " عمرو بن أبي ربيعة "، والحزن عند " جرير" .

– ليأتي الدور على" العصر العباسي "، فلعل أشهر الشعراء الذين تغنوا بالوطن كان " أبو تمام " و"أبو فراس الحمداني " و" المتنبي " الذين كانت أشعارهم عن الوطن تتفجر بالأحاسيس، مثقلة بالجراح وألم الفراق.

– أما الحنين إلى الوطن في العصر الأندلسي، فتميز أكثره بتيمات تعبر عن الغربة والأوضاع السياسية –آنذاك –، وكذا الأسى والحزن والحسرة، وهموم البعد عن الأوطان، ولعل أبرز شعراء تلك الحقبة " أبو الحسن سهل بن محمد بن مالك الغرناطي "، " الملك يوسف الثالث "، " أبو الحسن بن الصباغ العقيلي "، " أبو الحسن بن سعيد "، " لسان الدين بن الخطيب "، وأشهرهم على الإطلاق "ابن زيدون "، الذي كان شعره لوطنه لوعة وحسرة ودموعا امتزجت بالحنين وحب الوطن.

– لقد شارك الشعراء أقوامهم في همومهم الاجتماعية والسياسية ومواقفهم الوطنية، ورؤى تجسد عمق الهوية الوطنية، وذلك لمواكبة شعراء العصر الحديث الحوادث الطارئة التي ألمت بأوطانهم فنجد من الشعراء المحافظين " أحمد شوقي "، " محمود سامي البارودي "، ومن الجزائر " أحمد سحنون" و" محمد العيد آل خيفة "، فكان شعرهم إصلاحيا اجتماعيا، سياسيا يتماشى والواقع المعيش والظروف الحاصلة آنذاك وبطش المستعمر، أما الشعراء المجددين، فقد لعب فيه شعراء المهجر دورا كبيرا أين جاء التجديد في المبنى والمعنى يتماشى وفق رؤى مستقبلية جديدة، فتبنت ذلك كل من" الرابطة القلمية "و" جماعة أبولو "و" العصبة الأندلسية " ليكون الشعر الرومنسي أكثر أنواع الشعر ارتباطا بالمنفى وحب الوطن، ولعل أبرز الشعراء المجددين نذكر: " إيليا أبو ماضي "، " جبران خليل جبران" " نازك الملائكة "، " بدر شاكر السياب ".

– أما الوطن في الشعر المعاصر، كتيمة عامة تغلغلت في نفوس الشعراء آنذاك لتمتزج مع المشاعر المختلطة بألم الفراق والغربة والحنين، فكان الإبداع في النص الشعري جليا للقارئ، فقد جاد الشعر بفكرة وسلاح القلم ليبعث الأمل في نفوس الشعوب المتألمة من بطش الاستعمار وبعث رسائل القوة والصمود، وزرع أمل التحرر في نفوس المجتمعات المنهكة، وأبرز شعراء هذا العصر نذكر: " محمود درويش"، " نزار قباني "، " ادونيس "، الذين أظهروا حقيقة اكتمال معنى" الوطن الجغرافي " إلا إذا عانقه " وطن روحي " ليكون لنا وطن إسلامي كبير لا حدود له، وهذا ما لمسناه في الأخير عند الشاعر " مفدي زكريا " و" إبراهيم طوقان " وتعاملهما مع تيمة الوطن بنظرة جديدة فرضتها الظروف الاجتماعية والسياسية معا وفرقتهما الجغرافيا وجمعهما التاريخ المشترك، ف" مفدي زكريا " الذي عايش فترة الاحتلال الفرنسي، وعانى مثله مثل الشعب الجزائري ويلات الحرب وبطش المستعمر الأمر الذي أدى إلى اشتعال نار حب الوطن والنفي عن الوطن والشوق إليه،

كما أنه كُتبت له الحياة ليرى حمام الحرية يرفرف في سماء وطنه، خلافا لإبراهيم طوقان الذي اضطهد من طرف الانتداب البريطاني، وخصوصا من كان وصيا على هذا الانتداب من بني جلدته، ليحمل مسؤولية الأمة وسلاح القلم الذي استطاع من خلاله كشف المستور وكذا التغني بالوطن والحرية التي لم يراها بعد أن داهمه الموت بسبب مرض ألم به، ليفارق الحياة ويترك خلفه أعمالا شعرية كلها حماس وعزيمة وأمل مشرق وجديد .

ـ جعل "مفدي زكريا" من الخطاب الثوري أسلوبا يختزل فيه كل ما يشغل باله من القضايا السياسية والوطنية – آنذاك ، فكان معجم ألفاظه يعج بالمعاني والدلالات التي توحي بالقوة والصبر والاعتزاز والوعيد الشديد لكل من تسول له نفسه المساس بالوطن والهوية والقيم الاسلامية، فقد غلب على شعره التكرار والرمز (الطبيعي والتاريخي) وذلك لتأكيد أحقية شعبه بالحرية والاستقلال وزرع الأمل وعتاب فرنسا من جهة أخرى، وإضفاء المتعة والاكتشاف والتأويل داخل النص من خلال استعمال الرمز وتر كالقارئ يعدد القراءات والتأويلات، إلا أنه وفي كثير من الأحيان يخاطب عدوه (فرنسا) باسمها الصريح، دون تلميح أو كناية، مما يدل على قوة شخصية الشاعر وقدرته على المواجهة .

ـ ومثله "براهيم طوقان " الذي كان (التكرار والرمز) يظهران جليا في قصائده، وخاصة الرمز الذي ترنح بين (الرمز الطبيعي والتاريخي والإسلامي)، فكان أسلوبه محملا ب (المفارقات)، وكذا (السخرية) من العدو البريطاني ومن عملائه.

ـ استطاع الشاعران ترك بصمة لدى الشعوب العربية والإسلامية وحتى دول العالم الأخرى، بحيث كان لهما الفضل في كتابة (النشيد الوطني) لبلديهما، والذي متعا به الشعوب في كل المحافل ... باعتبارهما شعلتين أنارتا درب شعبين مضطهدين عاشا ألم الاستعمار.

ـ تجلت تيمة الوطن في عناوين قصائد الشاعرين ومضامينهما وأبياتهما، ويعود ذلك إلى الحالة النفسية التي رعاشها الشاعران جراء الظروف السياسية ـ آنذاك ـ فعند ط مفدي زكريا" نجد كل من " إلياذة الجزائر " " أرض أمي وأبي " " نشيد بنت الجزائر "، كما أبدع " إبراهيم طوقان " ليجعل التيمة الكبرى والتيمات الصغرى للوطن تعبيرا عما يحز في نفسه ومحاولة منه للتعبير عن حب الوطن وإخلاصه وألمه وحسرته فنذكر: "موطني "، " يا موطني " " إلى بائعي البلاد " " البلد الكئيب " كما تجلت تيمة الوطن في مضامين ودلالة الأبيات الشعرية بين حبه لوطنه وجماله وكذا التضحية من أجله، ونقد الواقع الاجتماعي والسياسي .

ـ استطاع الشاعران من خلال أعمالهما الشعرية التي اهتمت بتيمة الوطن، وامتزجت بالإيقاع الحزين تارة، وإيقاع الحماسة وزرع الأمل تارة أخرى، لتحتم على القارئ التأقلم مع جو النص والاندماج فيه كما سمح للشاعرين مشاركة همومها، بين ألم ذاتي للشاعرين وألم جماعي يتشارك فيه الشاعران وشعوبهما مآسي البعد عن الوطن والتحرر والعيش بسلام.

– الشاعران وإن لم يحملا السلاح ولم يجاهدا به إلا أن سلاح القلم كان ملاذهما من تلك الظروف القاسية تارة والدفاع عن الوطن وتحريض النفوس المحبة لأوطانها تارة أخرى، فكان شعرهما وما حمله من آلام وحسرة ومآسي بذرة أمل استطاعا أن يزرعاها في قلوب الشعوب العربية والإسلامية لتترجم في الأخير إلى حرية دفع في سبيلها الشعب النفس والنفيس والغالي والرخيص.

وفي الأخير.... ما عسانا أن نقول: {الحمد لله الذي وفقنا لهذا، راجين من الله تعالى التوفيق والسداد، وأن نكون قد وفقنا في الإلمام بكل جوانب الموضوع، وكل ما نرجوه أن تكون هناك المزيد من الدراسات والبحوث والتي تنير الطريق أمام الباحث وتذلل له العقبات وتسهل عليه الوصول إلى المادة العلمية التي يريدها من أقرب الطرق ...}.

الملحق

1-التعريف بالشاعر مفدي زكريا:

يعتبر مفدي زكريا، من بين أهم وأبرز شعراء الجزائر في العصر الحديث، نال شهرة واسعة في العالم العربي، والسبب واضح، وذلك لأنّ اسمه ارتبط بأمرين مهمين لهما علاقة مباشرة بتاريخ الجزائر العظيم.

- **الأولى:** ارتباطه بالحركة النضالية، وتعبيره عن أراءها، وإسهامه الواضح في بعث روح التضحية من أجل حرية الفرد الجزائري، وهذا ما عرف عنه في قصائده سالفة الذكر.

- **الثانية:** دوره الفعال في إرساء أهم معالم ورموز السيادة الوطنية، وهذا من خلال نصّه لمقطوعة النشيد الوطني الجزائري.

ولد هذا الشاعر عام 1908، ببني يزقن، التحق بالمحظرة لحفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ الدين الإسلامي ولما بلغ السابعة من عمره، انتقل إلى مدينة عنابة للالتحاق بأبيه الذي كان يمارس التجارة هناك، فدخل المدرسة الابتدائية وفي عام 1924، انتقل إلى تونس مع البعثة العلمية الميزابية.

حيث بقي سنتين يتلقى التدريس في مدرسة السلام القرآنية، ثم بدأ يدرس العلوم الحديثة كالحساب والهندسة والجبر والجغرافيا والتاريخ، وذلك في المدرسة الخلدونية، التحق بعدها بجامع الزيتونة حيث قرأ النحو والبلاغة والصرف، لقبه زميله في البعثة والدراسة سليمان أبو جناح ب «مفدي" فأصبح لقبه الأدبي "مفدي زكريا".[1]

كان يغشى مسامرات الأديب التونسي الكبير الأستاذ **العربي الكبّادي**، وجمعته صداقة حميمة في تلك الفترة بالشاعرين أبو القاسم الشابي، ورمضان حمّود الذي كان زميلا له في البعثة.

1 . ينظر :فؤاد صالح السّيد، موسوعة أعلام القرن العشرين في العالمين العربي والإسلامي (ج2)، مكتبة حسن العصرية، لبنان، 2013، ص 435.

نشر أول قصيدة له "الريفين" في جريدة "لسان الشعب" سنة 1925، وجريدة الصواب "التونسيتين" اعتقل في تونس لمدة أربعة أشهر، وذلك نتيجة انخراطه في صفوف: الشبيبة الدستورية.[1]

التقى شاعرنا هناك بكثير من العلماء والمثقفين، ترأس تحرير مجلة الحياة عام 1933 وحرّر في جريدة (البرلمان) و(الشعب) الجزائريتين، كما عمل في إذاعة تونس، ومارس التجارة والترجمة والتعليم الحر، وكان أمينا عاما لحزب (نجم شمال إفريقيا)، ثم أمينا عاما لحزب الشعب الجزائري.

وانظم إلى الشبيبة الدستورية، وجبهة التحرير الوطني في تونس، وكان متعاطفا مع جمعية العلماء المسلمين، والناطق الرسمي للحركة الثورية، وداعيا إلى وحدة أقطار المغرب العربي، وظّف جل شعره لخدمة الثورة، وكان يُذَيلْ أشعاره بإمضاءات مستعارة مثل: فتى المغرب، ابن تومرت، الفتى الوطني...

بعد عودته إلى الوطن، أدخل السجن خمس مرات، ليفر سنة 1959 لينظم إلى حزب جبهة التحرير الوطني خارج الجزائر.[2]

وصفه الدكتور عبد المالك مرتاض فقال: «وكان مفدي زكريا أنيقا جدا بحيث لا تراه إلا وهو يرتدي بذلة أدرونية فاخرة، بربطة عنق وقميص يتماوجان معها في اللون...».[3]

1 .ينظر: مصطفى بن الحاج بكير حمّودة، أمجادنا تتكلم، بقلم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، مؤسسة مفدي زكريا، 2003، ص 10.

2 . ينظر: محمد خيذر رمضان يوسف، تتمة الإعدام، وفيات 1976، 2013، مج 9، الطبعة 4، دار الوفاق، الجمهورية اليمنية، 2016، ص 208.

3 . ينظر عبد المالك مرتاض: معجم الشعراء الجزائريين من القرن 20، دار هومة، الجزائر، 2007، ص 432

بعد فرار مفدي إلى خارج الوطن، استقر بتونس وواصل كفاحه بالقلم في جريدة "المجاهد" اللسان الناطق لجبهة التحرير الوطني، زار المشرق العربي وبرز ضمن أدباءها وكرم سنة 1961 واغتنم الفرصة آنذاك لطبع ديوانه "اللهيب المقدس"، ببيروت سنة 1961.

يعود الشاعر إلى الوطن بعد الاستقلال، ويفتتح مكتبا للخدمات الإدارية بساحة الأمير عبد القادر، ويواصل مهنة التأليف الهادف إلى توحيد تراب العالم العربي، يعود إلى تونس مرّة أخرى سنة 1963، ثم إلى الدار البيضاء سنة 1969[1]، ليواصل نشاطه الأدبي، وفي سنة 1972 دعي من طرف الأستاذ مولود نايت بلقاسم الذي كان وزير التعليم الأصلي والشؤون الدينية، فألقى "إلياذته" الشهيرة.

وفي آخر عودة له إلى مدينة تونس، كانت العودة التي لم يرجع منها إلى أرض الوطن إلا جثمانا، فقد توفي في الثالث من رمضان سنة 1397 ل 17 أوت 1977.[2]

ترك الشاعر خلفه تراثا أدبيا ثريا بين مؤلف وقصيدة، ألقيت في زيارات مختلفة من أبرزها اللهيب المقدس، تحت ظلال الزيتون، من وحي الأطلس، إلياذة الجزائر، وشارك في أكثر من 29 محاضرة، ألقى فيها مداخلاته، في أمسيات شعرية وأدبية.

بالإضافة إلى أعمال أدبية أخرى بقيت طي النسيان أشار إليها بنفسه في حوار صحفي ذكر منها: **سبع سنوات في سحون فرنسا، حواء المغرب العربي في معركة التحرير، الثورة الكبرى أوبيريت**...وغيرها من الأعمال الأدبية.[3]

1 .ينظر :بلقاسم بن عبد الله، الأدب الجزائري وملحمة الثورة (تصدير: أبو القاسم سعد الله) منشورات الحضارة، 2013، ص 133.

2 ينظر: المرجع نفسه، ص 144.

3 . ينظر: المرجع نفسه، ص 135.

2-التعريف بالشاعر إبراهيم طوقان:

يرجع نسب الشاعر – فيما يقال – إلى آل طوقان، وهو بطن من بطون العرب الموالي في غرب بادية الشام، ونظرا لكثرة الخلافات السياسية في عهد المماليك، هاجروا إلى نابلس، واستقر بهم الأمر في هذه المدينة إلى أن ولد إبراهيم بن عبد الفتاح آغا وفوزية بنت أمين عسقلان سنة 1905 وفي نابلس قضى فترة تعليمه الابتدائي بالمدرسة الرشادية الغربية (1914-1918) وكان عمره يتراوح بين 9 سنوات إلى 13 سنة...، ودخل مع طور المراهقة المدرسة الثانوية في القدس، في هذه المرحلة الابتدائية تعهده معلمان غرسا فيه حسب اللغة والشعر: الشيخ إبراهيم أبو الهدى الخماش والشيخ فهمي أفندي هاشم...[1]

وفي سنة 1919 رحل إلى القدس، وانضم إلى مدرسة" المطراف" (الثانوية)، وبقي فيها حتى عام 1923، وخلال هذه المرحلة عرف أول توجيه جاء من أستاذه **نخلة رزيق** الذي تعهد قراءته وسمع التجارب الأولى من شعره، أصدر أول قصيدة له سنة 1923 وكانت قصيدة رائعة، وفي نفس السنة رحل إلى بيروت ليدخل الجامعة الأمريكية، وتخرج منها سنة 1929، وحصل على درجة البكالوريوس في نفس السنة.[2]

تعرف في بيروت على عدة أدباء منهم حافظ جميل وعمر فروخ، ووجيه البارودي، وهؤلاء الثلاثة يعدون من بين أهم مثقفي بيروت آنذاك، عاد إلى نابلس معلما في مدرسة النجاح، وكان مؤثرا رائعا، حبّب إلى طلبته قرض الشعر والاستمتاع به.

1 ينظر: عمر فروخ، شاعران معاصران، أبو القاسم الشابي، المكتبة العلمية، بيروت، 1945 ص 15، 16، 17.

2 ينظر: محمد حسن عبد الله، إبراهيم طوقان، حياته دراسة فنية في شعره، مؤسسة جائزة الملك عبد العزيز بن سعود البابطين، السعودية، 2002، ص 12.

وبعد سنة 1930 عاد إلى بيروت، والتقى بفتاة كفر كنة التي فجرت فيه قصائد الغزل وألهمته الشعر العاطفي، شغل منصب مدرس في الجامعة الأمريكية، وكان معروفا بشدة مرضه فقد أصيب عدة مرات بوعكات صحية متكررة، وفي سنة 1936.

عين مدير برنامج بإذاعة القدس، وبقي فيها إلى سنة 1940، وقد عرف منه حبه لهذه الوظيفة وإعجابه بها، وأقيل سنة 1940 لأسباب يقال إنها سياسية، ممّا دفع بالشاعر إلى السفر للعراق، وهناك اشتد عليه المرض، فلم يتوان في العودة إلى زوجته وابنته (عريب) في مسقط رأسه، أين وافته المنية في سنة 1941.[1]

نشر ديوانه بعد وفاته بعنوان: ديوان إبراهيم طوقان، بيروت، دار الشرق الجديد، 1375هـ 223ص، وذكر رضي صدوق أنه لا يضم جميع أشعاره، حيث إنّه خضع للرقابة الصارمة من شقيقه أحمد رئيس وزراء الأردن، ثم أخرجه إحسان عباس بعد أن رتّبه ترتيبا زمنيا، وأضاف إلى مقدمة فدوى دراسة من عنده، وصدر سنة 1395 في دار القدس (بيروت)[2]

تقول عنه أخته فدوى طوقان في كلمة لها بعنوان:

أخي إبراهيم، صورة الشاعر في مرآة داخلية:

« ونهكت الأسقام إبراهيم، فنقل إلى المستشفى الفرنسي في القدس، وبعد أيام قليلة، وفي مساء يوم الجمعة الثاني من شهر أيار/ مايو سنة 1941، أسند إبراهيم رأسه إلى صدر أمه، وقد نزف دمه وخارت قواه، وهناك أسلم روحه الطاهرة إلى بارئه، واستراح للأبد، كان – لإبراهيم رحمة الله – مصحف صغير لا يخلو منه جيبه، منير كأبه من جهة، وليكون في متناول يده كل حين من

1 . ينظر: صادق عبد الله أبو سليمان، إبراهيم طوقان، وجدان الشعب الفلسطيني، دار المقداد للطباعة، غزة، 2002، ص16، 17.

2 . محمد خير رمضان يوسف: تتمة الأعلام، ج 9، ط 4، دار الوفاق، اليمن، 2012، ص 36.

جهة أخرى، فلّما توفاه بارؤه، كان ذلك المصحف تحت وسادته، ولا تزال إلى اليوم ثنية ثناءها في إحدى صفحات سورة التوبة، وكانت هذه الآيات الشريفة آخر ما تلاه إبراهيم من كتاب الله أثناء مرضه...»[1].

1 . فدوى طوقان، أخي إبراهيم، موقع ثقافات، www.thaqafat.com تاريخ النشر 15 سبتمبر 2017، اطلع عليه في 02 ماي 2024.

قائمة المصادر المراجع

قـــائمـــة المصـــادر والمراجـــــع

أولا: الكتب

01 . إبراهيم رماني، المدينة في الشعر العربي الجزائري نموذجا (1925 * 1962) الهيئة العامة للكتاب، 1997، القاهرة.

02.إبراهيم طوقان، الأعمال الشعرية الكاملة، كلمات عربية للترجمة، مصر2012.

03.إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، تونس 1986.

04.ابن زيدون، الديوان، تحقيق: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت .1990

05.أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، جمهرة اللغة، ج 1، تح: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، لبنان، 1987

06.أبو الفضل مكرم بن منظور، لسان العرب، ج :13، دار صادر، بيروت، 2003.

07 . أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، راجعه: أنس الشامي، زكرياء جابر أحمد دار الحديث القاهرة د ت .

08.أبو نواس الحمداني، الديوان، دار بيروت، 1983.

09. أبو القاسم محمد بن عمر بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، الجزء 2، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية لبنان د ت.

10. أحمد بن علي الفيومي المقري، المصباح المنير، دار الحديث، القاهرة، 2003.

11. أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية، الجزء 1، دار عالم الكتب، الطبعة 1، القاهرة د ت.

12. أحمد سحنون، الديوان، دار منشورات الصبر، ط 2 الجزائر، 2007 .

13. أحمد شوقي، الشوقيات، تح: عمر فاروق، دار الأرقم لبنان، 2016 .

14. المتنبي، الديوان، دار بيروت، 1983..

15. امرؤ القيس، الديوان، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة 05، الجزء: 01 الكويت 1996

16. بدر شاكر السياب، الديوان (م 2)، دار العودة، لبنان .2016

17. بلقاسم بن عبد الله، الأدب الجزائري وملحمة الثورة، تقديم: أبو القاسم سعد الله، منشورات الحضارة الجزائر، .2013

18. توفيق برو، تاريخ الأدب القديم، دار الفكر المعاصر ن سوريا .1996

19.جبران خليل جبران، الديوان، الشاملة الوطنية، ب و، 2021.

20 . جميل صليبا، المعجم الفلسفي لألفاظ اللغة العربية والفرنسية والإنجليزية، ج 2، دار الكتاب اللبناني، لبنان، مكتبة المدرسة، 1982 .

21 حسان بن ثابت، الديوان، شرح: عبد أمهنا، دار الكتب العلمية، الطبعة 2، بيروت، .1994

22. سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، الطبعة 01، بيروت، 1985 .

23. شمس الدين بن القيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد: تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، 1971.

24.صادق عبد الله أبو سليمان، إبراهيم طوقان، وجدان الشعب الفلسطيني، ط 01، دار المقداد، غزة، 2002 .

25. عبد المالك مرتاض، أدب المقاومة الجزائرية، دار هومة الجزائر، 2008.

26. عبد المالك مرتاض، معجم الشعراء الجزائريين من القرن 20، دار هومة، الجزائر، 2007.

27. عبد الكريم حسن، المنهج الموضوعاتي نظرية وتطبيق (la thématique)، المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر والتوزيع، بيروت، 1990

28. عبيدة الشلبي، شعر الغربة

29. عمر فروخ، شاعران معاصران، إبراهيم طوقان، أبو القاسم الشابي، المكتبة العلمية، بيروت، 1945 عن الوطن، بين القديم والحديث، دار حرمون، قطر، 2008.

30. فرانسوا راستيي، فنون النص وعلومه، تر: إدريس الخطاب، دار توبقال، الطبعة: 01، المغرب، .2010

31 . فؤاد صالح السيد، موسوعة أعلام القرن العشرين، مكتبة حسن العصرية، لبنان، 2013

تاريخ النشر: 28 أغسطس .2018 تاريخ التحميل: 28 فيفري .2024

32. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، دار الحديث القاهرة، تح: أنس الشامي، زكرياء جابر أحمد ،.2008

33. مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، دار التحرير، مصر، .1989

34. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، الطبعة 04، مكتبة الشرق الدولية، مصر، 2004

35. محمد خير رمضان يوسف، معجم المؤلفين المعاصرين، ج 1، مكتبة الملك فهد الوطنية السعودية، 2004.

36. محمد حسن عبد الله، إبراهيم طوقان، حياته دراسة فنية في شعره، مؤسسة جائزة الملك عبد بن سعود البابطين، السعودية، .2002

37 . محمد خير رمضان يوسف، تتمة الأعلام، ج 9، ط 4، دار الوفاق، اليمن، 2012

38. محمد إبراهيم حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي، دار نهضة مصر، القاهرة د ت.

39 . محمود سامي البارودي، الديوان، تح: علي الجارم، محمد شفيق معروف، دار العودة، بيروت، 1997.

40. محمد العيد آل خليفة، الديوان، دار الهدى، الجزائر، 2010

41.محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1986

42. مفدي زكريا، إلياذة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987.

43 . مفدي زكريا: اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر،2007

44 . مفدي زكريا، تحت ظلال الزيتون، موفم للنشر، الجزائر، .2007

45 . مصطفى بن الحاج بكير حمودة، أمجادنا تتكلم، مؤسسة مفدي زكريا، الجزائر، 2003

46. نازك الملائكة، الديوان، دار العودة، بيروت، ج2، 1997.

47. وهيب طنوس، الوطن في الشعر العربي، ط 1، (1975.1976)، مديرية المطبوعات الجامعية، سوريا د ت

48. يوسف وغليسي، إشكالية المصطلح في الخطاب النقدي العربي الجديد، الدار العربية للعلوم الجزائر، 2008.

ثانيا: المجلات:

1.الحاج جغدم، البعد الوطني في الشعر الجزائري الحديث، مفدي زكريا نموذجا، مجلة أدبيات، ع 2، مج 1، الجزائر، 2019 .

02. السبتي سلطاني ، التكرار الحجاجي في إلياذة الجزائر ، مجلة الواحات ، العدد : 18 ، الجزائر ، .2013

03. بن حمدة محمد الصالح ، جماليات الأسلوب في الخطاب الشعري عند مفدي زكريا ، مجلة أدبيات ، العدد 04 ، الجزائر 2022

04. بوزيدي ساسي هادف ، المعجم الشعري في إلياذة الجزائر لشاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا، مجلة الباحث، ع 10 ، مج 04 ، الجزائر، 2012 .

05 . سيد رضا أمير أحمدي علي نجفي ، فتحلي زادة ، أشكال الحنين في الماضي في شعر بدر شاكر السياب ، مجلة الدراسات الأدبية و آدابها ، العدد: 11 ، إيران ن 2012

06. طارق بوهود ، الرمز الشعري الدلالات و الأبعاد في شعر مفدي زكريا ، مجلة المقال، ع :1 مج : 1 الجزائر 2015 .

07 . طاهر فاطمة ،خصائص الخطاب الشعري الجزائري لدى مفدي زكريا ، مجلة اللغة العربية مج: 23 ع : 3 الجزائر ، 2021 .

08. عبد المؤمن عجاج محمد طول ، شعرية التكرار في قصائد إبراهيم طوقان الوطنية ، مجلة سيميائيات ، ع :1 ، مج 18 ، الجزائر 2022 .

09 . عبد اللطيف حجاب ، جماليات المكان القومي و دلالاته في شعر مفدي زكريا ، مجلة اللغة العربية ، ع 3 ، مج 24 ، الجزائر 2002.

10. غانمي محمد اسماعيل ، شريفي مكية ، حب الوطن في شعر إبراهيم طوقان ، مجلة الكلية الإسلامية الجامعية ، ع 51 ، مج 13 ، العراق ، 2019 .

11. فواز معمري ، الطبيعة الساكنة و المتحركة في الشعر الجاهلي ، مجلة المعيار م مج:27 ، ع :3 ا، الجزائر 2023 .

12 . محمد راضي جعفر، الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر، مجلة الرواد، منشورات اتحاد الكتب العربي، 1999.

13 منيرة شرقي ، النقد الموضوعاتي ، مجلة الآداب أ مج 19 ، العدد 01 الجزائر ، جامعة العربي التبسي ، تاريخ النشر : 1-12-2019 ، تاريخ التحميل : 28-04-2021

14 . نبيلة إبراهيم ، المفارقة ، مجلة الفصول ، العدد 3-4 ، المكتبة المصرية للكتاب ، مصر ، 1987 .

15. ناصر يوسف جابر شبانه ، قصيدة " ملائكة الرحمة" لإبراهيم طوقان (التشبيه الكبير و الهندسة الايقاعية ، المجلة الأردنية في اللغة العربية و آدابها . ع : 1 مج : 7 ، الأردن ، 2013

16. ياسر أبو عليان ، الاتجاه القومي في شعر إبراهيم طوقان ، مجلة جامعة بيت لحم ، ع 1 ، مج : 16 ، فلسطين ، 1997 .

ثالثا: الرسائل الجامعية

01 . بولالي توفيق، المكان في إلياذة مفدي زكريا(مذكرة ماستر)، كلية الآداب واللغات، جامعة أحمد دارية، أدرار، الجزائر، 2021– 2022 .

02. مها روحي إبراهيم الخليلي، الحنين والغربة في الشعر الأندلسي عصر سيادة غرناطة(أطروحة دكتوراه)، إشراف: وائل صالح، كلية الدراسات العلمية، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2007 .

03. مي صبري عبد الرزاق ، صورة الوطن الواقع في شعر محمود درويش ، إشراف : أيمن محمد العطار ، جامعة منهور ،مصر 2021 .

04 . نادية دبي، الرمز الطبيعي في شعر إبراهيم طوقان(مذكرة ماستر)، كلية الآداب واللغات،

05. كريمة زيتوني، المنهج الموضوعاتي في مقاربة الشعر العربي (بحث لنيل شهادة الماجستير) إشراف ك د / محمد قادة ، جامعة عبد الحميد بن باديس ، مستغانم

جامعة المسيلة الجزائر، 2014– 2015 .

رابعا: مواقع الانترنت :

01 . الزروق عبد الحميد علي، ماجدة الهادي ألماني، أسما محمد: نوازغ الشوق والحنين لدى شعراء المهجر، مجلة البحوث الأكاديمية، lam edu.ly تاريخ التحميل: 04 – 05 – 2024

02. جميل حمداوي، نظريات النقد الأدبي فيما بعد الحداثة،(الطبعة 2) www.alukah.com

03. ساعد سليمان، مجلة سيدتي: www.saidaty.net، تاريخ النشر: 19 سبتمبر 2020. تاريخ التحميل: 25 جانفي 2024.

04. عبد اللطيف الوراري، الأدب والمنفى، www.alquds.com، تاريخ النشر: جانفي 2017.

05. عبد القادر شارف، الظواهر الايقاعية في إلياذة الجزائر لمفدي زكريا، جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف www.univ-chlef.dz-djoussour

06 . عبيد حسن سعيد، الحنين إلى الوطن، موقع القدس العربي، obead ho @yahoo.com تاريخ النشر: 16 يونيو 2011، تاريخ التحميل :07-05-2024.

07.عمرو بن كلثوم، الديوان، تح إميل بديع يعقوب، ج1، ط 2، دار الكتاب العربي، لبنان 1999

08. فدوى طوقان، أخي إبراهيم، موقع ثقافات: www.thaqafat.com. تاريخ النشر: 15 سبتمبر 2015، تاريخ التحميل ك 02 ماي 2024 .

10. ليلي أحمياني، إشكالية مفهوم التيمة، www.alhewar.org، تاريخ النشر: 27-07-2014 تاريخ التحميل: 27 جانفي 2024.

11. محمد المسعودي، حب الوطن ووعي المواطنة، مجلة القافلة الإلكترونية، www.alarabiya.netتاريخ النشر: 1-11-2020، تاريخ التحميل: 3-05-2024.

12. موسوعة البحوث الشاملة،www.bahth25.blogpost.com. تاريخ النشر: 23-12-2008، تاريخ التحميل: 27-3-2024.

13. مولود بن زادي، جبران خليل جبران، (الحنين إلى الوطن، وصعوبة الرحيل من المهجر) www.mouloud K ben zadi.com ، تاريخ النشر: 15-9-2016، التحميل: 5-4-2024.

14 . محمد الصالح خرفي، الوطن ودلالاته في الشعر الجزائري المعاصر: مجلة جامعة الأمير عبد القادر، www.asjp.ccist.dz. تاريخ النشر: 15 - 05 - 2007/ تاريخ التحميل: 08-05-2024

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

العنوان	الصفحة
البسملة	03
إهداء 1	04
إهداء 2	05
مقدمة	07
مدخل	10
الفصل الأول تيمة الوطن في الشعر العربي القديم و الحديث	
1- في المفهوم والمصطلح	15
1-1 مفهوم التيمة	15
1-1-1 لغة	15
1-1-2 اصطلاحا	17
1-2 مفهوم الوطن	21
1-2-1 لغة	21
1-2-2 اصطلاحا	23
2- تجليات تيمة الوطن في الشعر العربي قديما و حديثا	26
2-1 موضوع الوطن في الشعر العربي القديم	26
2-2 موضوع الوطن في الشعر العربي الحديث	35
2-3 موضوع الوطن في الشعر العربي المعاصر	43
الفصل الثاني: تمظهرات تيمة الوطن بين مفدي زكريا وإبراهيم طوقان	
1- حب الوطن	48
1-1 حب الوطن عند مفدي زكريا	50
1-2 حب الوطن عند إبراهيم طوقان	57
1-3 حب الوطن بين مفدي زكريا وإبراهيم طوقان	62
2- جمال الوطن	64
2-1 جمال الوطن عند مفدي زكريا	65

2-2 جمال الوطن عند إبراهيم طوقان	70
2-3 جمال الوطن بين مفدي زكريا وإبراهيم طوقان	72
3- نقد الواقع الاجتماعي والسياسي	74
3-1 نقد الواقع الاجتماعي والسياسي عند مفدي زكريا	74
3-2 نقد الواقع الاجتماعي والسياسي عند إبراهيم طوقان	81
3-3 نقد الواقع الاجتماعي والسياسي بين مفدي زكريا وإبراهيم طوقان	89
4- التضحية من أجل الوطن	93
4-1 التضحية من أجل الوطن عند مفدي زكريا	95
4-2 التضحية من أجل الوطن عند إبراهيم طوقان	100
4-3 التضحية من أجل الوطن بين مفدي زكريا وإبراهيم طوقان	106
الخاتمة	111
ملحق للتعريف بمفدي زكريا وإبراهيم طوقان	17
قائمة المصادر والمراجع	124
فهرس الموضوعات	134